المقدمة في التصوف

لأبي عبد الرحمن السلمي

تقديم وتحقيق
دكتور يوسف زيدان

دار الجيل
بيروت

المقدمة في التصوف

لأبي عبد الرحمن السلمي

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

في الأيام الحاضرة، نجد اضطراباً عظيماً في قيمنا الخلقية ونوعاً من الانفصامية والتشتت في سلوكياتنا العملية.. بين ما نريده في داخلنا، وبين ما نفعله في الواقع..

وترجع أسباب هذه الحالة التي نعاني اليوم منها، إلى أن (الأخلاق الموروثة) التي ظلت ردحاً من الزمن توجه سلوكنا ومنهجنا الخلقي قد انحسرت، عندما حوصرت بنمط آخر من الأخلاق التي فرضها واقع العصر.. تلك الأخلاق الجديدة . التي سادت وتملكت مؤخراً: أخلاق الزحام!

وهكذا، كان لا بد من هذا التحول الاضطراري الذي أحدث فينا الاضطراب الخلقي والانفصامية الاجتماعية! ومن الثابت والبديهي، أن هذا (التحول) الخلقي المفاجىء كان نتيجة لسرعة إيقاع التقدم المادي واللهاث التكنولوجي.. حيث العبرة بالإنتاج (الكمي) وحيث يسأل الناس عن الثمن، وليس عن القيمة.

وهنا، في لحظة التحول الفجائي هذه، لا يمتلك المرء نفسه كيما يقف في مواجهتها ليسأل: ماذا أفعل؟ وإلى ماذا يمكن أن ينتهي السعي؟! إلى آخر مثل هذه التساؤلات التي لا تكون إلا في (وقفة) لا نجد سبيلاً إليها في غمرة الاندفاع المتهوس، نحو ما يظن كل واحد منا أنه غايته من الوجود..

وحدث أن ساد الاعتقاد بأنه طالما نأخذ من الغرب (الآلة) فإنه ينبغي أن نأخذ منه أيضاً.. الأخلاق، ومن ثم فقد ذهب بعض مفكرينا (الكبار) ليتتبعوا أثر المذاهب والفلسفات الخلقية في العالم الغربي، فقدموا لنا الكثير

من أنماط الأخلاق العملية البراجماتية، والأخلاق النفعية، إلى جانب الفلسفات القائمة على أفكار الحرية الفردية الشخصانية، والاختيار، وتحقيق الذات في مواجهة الآخرين وفي مواجهة (الكون الغامض المضطرب).. وقدمت هذه الأفكار إلينا في شكل يليق بها من العناية والدعاية (الإعلامية) بدعوى التثقيف العام، وبدعوى مسايرة الاتجاهات الفكرية في العالم المتحضر الماسك بزمام الفكر والتقدم الصناعي.. وكان من الغريب ألا نلاحظ أن (الأخلاق) هي مظهر إنساني، غير مجد أن نبحث عنه في فلسفات الحضارة الغربية اللاإنسانية.. حضارة الأسفلت!

وكان من الغريب أيضاً، ألا تلتفت أنظارنا في تلك (الأزمة الأخلاقية) نحو التراث، لعلنا نهتدي إلى المنهج الأخلاقي النافع، ولعلنا نقع على رؤية (للقيم) تتناسب مع التكوين النفسي والديني الخاص بنا، بوصفنا ورثة حضارة... وشرقيين.

... وبعد

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا، يقدم لنا شكلاً من أشكال السلوك الإسلامي، ومجموعة من المبادىء الخلقية عند الصوفية المسلمين.. مع ملاحظة أن كلمة (صوفية) لا تشير إطلاقاً إلى تلك الشرذمة من الدراويش المنحرفين الذين يحتشدون في ساحات المساجد العتيقة كل عام، ولا هم لهم غير التهوس والتبطل والرقص والإنشاد.

إن كلمة (صوفية) تعني في حقيقتها، جماعة من الرجال الذين لم يلتفتوا إلى مظاهر الحياة الفانية، واتخذوا لأنفسهم مذهباً تقوم أساسياته على قيم إسلامية نقية، وفكر روحي عميق، وفلسفة إنسانية عظيمة.. فما التصوف في الحقيقة إلا إسلامٌ بذوق!

ومجموعة المبادىء والقيم الخلقية التي نقدمها اليوم من خلال هذا الكتاب الذي ألفه أبو عبد الرحمٰن السلمي، ليست مشروعاً لإقامة منهج خلقي، بقدر ما هي (وقفات قصار) أمام بعض القيم الإسلامية والمعاني الصوفية، كالمحبة والشفقة والسخاء.. الخ، وهي موضوعات كادت أن تنسينا إياها أخلاق الزحام، وزحام المذاهب الأخلاقية.

... ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند مؤلف الكتاب.

السلمي

تتفق المصادر على أن اسمه هو (أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسين ابن موسى السلمي النيسابوري) ولد بنيسابور في جمادى الآخرة، سنة خمس وعشرين وثلاثمائة من الهجرة (= ٩٣٦ ميلادية).. ويقال إنه ولد سنة ٣٣٠ هجرية (= ٩٤١ ميلادية)[1] وتقول المصادر إن والده كان من الزهاد، وأنه كان ـ مع فقره ـ صوفياً ذا مكانة مرموقة، وكانت والدته سيدة فاضلة من المسلمات المؤمنات. وقد نشأ السلمي بين والديه نشأة إسلامية، ولقي تربية علمية من صغره فسمع الحديث النبوي في سن مبكرة من أبي بكر الصبغي.

ثم رحل السلمي من بلاده لطلب العلم، فذهب إلى العراق والحجاز حيث التقى بكبار المحدثين وأعلام التصوف والتفسير آنذاك، فأخذ من علومهم، وتتلمذ على الكثيرين منهم.. فمن شيوخه الدارقطني والابزاري والنصرآباذي وأبو نصر السرّاج، ومنهم أيضاً أبو عمرو بن نجيد وأبو سعيد النفعي والطرائفي والنيسابوري وغيرهم، وهؤلاء جميعاً من أئمة الحديث والتفسير والتصوف وعلم طبقات الرجال..

وكانت لأبي عبد الرحمٰن السُّلمي عناية خاصة بالتصوف والمتصوفة. فنجد أبا نعيم الأصفهاني يقول عنه: (هو أحد من لقيناه ممن له العناية التامّة

---

(١) توجد للسلمي ترجمات عديدة في كتب الطبقات والاعلام، انظر: طبقات الشافعية للسبكي (ج ٢، ص ٦٠، ٦١) مرآة الجنان لليافعي (٢/٢٦) نفخات الأنس لعبد الرحمٰن حامي (ص ٣٥٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/٢٤٨) المنتظم لابن الجوزي (٨/٦) ميزان الاعتدال للذهبي (٣/٤٦، ٤٧) طبقات الحفاظ للذهبي (٣/٣٤٨) دول الإسلام للذهبي (١/١٧٩) الوافي بالوفيات للصفدي (٢/٣٨٠، ٣٨١) لسان الميزان لابن حجر (٥/١٤٠، ١٤١) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/١٢، ١٣) شذرات الذهب لابن العماد (٣/١٧٦).

بتوطئة مذهب المتصوفة، وتهذيبه على ما بينه الأوائل من السلف، مقتد بسيمهم، ملازم لطريقتهم متبع لآثارهم، مفارق لما يؤثر عن المنحرفين المتهوسين من رجال هذه الطائفة، منكر عليهم..). ولعل شهرة السلمي قد قامت في الأصل على واحد من كتبه في التصوف، هو كتابه (طبقات الصوفية) الذي يعد أشهر كتب السُلمي على الإطلاق.

كذلك فقد شغف السُلمي بفنون المعارف الإسلامية الأخرى، وترك لنا العديد من المؤلفات في التفسير والحديث والآداب والمعاملات، إلى جانب مؤلفاته في طبقات الرجال وفي التاريخ.. وقد تتلمذ على يد السلمي الكثيرون من رجال الفكر الإسلامي، ممن تلقوا عنه، واستفادوا من مؤلفاته، كالبيهقي والقشيري والخطيب البغدادي، والجويني والواسطي وغيرهم الكثير..

وكانت وفاة السُلمي في شهر شعبان سنة ٤١٢ هجرية (نوفمبر ١٠٣١ ميلادية) ودفن في خانقاه بناه في نيسابور.

مــؤلفاتـــه

لأبي عبد الرحمٰن السلمي قائمة طويلة من الكتب والرسائل التي ألفها في موضوعات إسلامية متنوعة. وإن كانت غالبية مؤلفاته قد تركزت حول النواحي الصوفية والأخلاقية في الإسلام..

ومن المؤسف أن تظل غالبية مؤلفات السلمي تراثاً مخطوطاً، تتوزع نسخه الخطية بين مكتبات الشرق والغرب، عرضة للتلف والضياع والتآكل في المكتبات الكبرى وخزانات المخطوطات.. ولم ينشر من مؤلفات السلمي حتى يومنا هذا سوى أقل القليل!! وهذه المؤلفات هي:

١ ـ طبقات الصوفية (طبع عدة مرات).

٢ ـ رسالة الملامتية (نشرها الدكتور أبو العلا عفيفي في كتابه: الملامتية وأهل الفتوة).

٣ ـ حقائق التفسير (مخطوط).

٤ ـ مناهج العارفين (مخطوط).

٥ ـ عيوب النفس ومداراتها (مخطوط).
٦ ـ آداب التعازي (مخطوط).
٧ ـ آداب الفقر وشرائطه (مخطوط).
٨ ـ آداب الصحبة وحسن العشرة (مخطوط).
٩ ـ آداب الصوفية (مخطوط).
١٠ ـ غلطات الصوفية (مخطوط).
١١ ـ محن الصوفية (مخطوط).
١٢ ـ الأربعون في أخلاق الصوفية (مخطوط).
١٣ ـ سنن الصوفية (مخطوط).
١٤ ـ الأخوة والأخوات من الصوفية (مخطوط).
١٥ ـ درجات المعاملات، شرح لمصطلحات الصوفية (مخطوط).
١٦ ـ بيان أحوال الصوفية (مخطوط).
١٧ ـ تاريخ الصوفية (مخطوط).
١٨ ـ تاريخ أهل الصفة (مخطوط).
١٩ ـ مقامات الأولياء (مخطوط).
٢٠ ـ الفتوة (مخطوط).
٢١ ـ الزهد (مخطوط).
٢٢ ـ السماع (مخطوط).
٢٣ ـ سلوك العارفين (مخطوط).
٢٤ ـ بيان زلل الفقراء ومناقب آدابهم؟ (مخطوط).
٢٥ ـ الفرق بين علم الشريعة وعلم الحقيقة (مخطوط).
٢٦ ـ أمثال القرآن (مخطوط).
٢٧ ـ تهذيب الناسخ والمنسوخ في القرآن لابن الشهاب الزهري (مخطوط).
٢٨ ـ الأربعون في الحديث (مخطوط).
٢٩ ـ سؤالات الدارقطني (مخطوط).
٣٠ ـ الاستشهادات (مخطوط).
٣١ ـ مسائل وردت من مكة (مخطوط).

٣٢ ـ الرد على أهل الكلام (مخطوط).

٣٣ ـ درجات الصادقين (مخطوط).

٣٤ ـ حديث السلمي (مخطوط).

٣٥ ـ وصية (مخطوط).

وإلى جانب هذه القائمة من المؤلفات[1]، يوجد للسلمي هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم، وهو: المقدمة في التصوف وحقيقته..

---

(١) انظر ما ذكر عن مؤلفات السلمي في:

ـ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، الجزء الرابع (ترجمة د. السيد يعقوب بكر . دار المعارف) ص ٨٥.

ـ فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب) الجزء الثاني، ص ٤٩٧.

ـ مقدمة (طبقات الصوفية) للسلمي، بعناية أحمد الشرباصي (كتاب الشعب) ص ٤.

المقدمة في التصوف

لا يوجد شك في نسبة كتاب (المقدمة في التصوف) لأبي عبد الرحمٰن السلمي، فقد ذكرته معظم المراجع القديمة والحديثة، رغم أن السنين لم تحفظ لنا من هذا الكتاب غير نسخة خطية وحيدة.. هي التي اعتمدنا عليها اليوم في تحقيقه.

ويتفق أسلوب السُّلمي في (المقدمة) مع أسلوبه في كتاباته الأخرى، فهو عادة ما يقسم موضوعاته إلى أبواب، ثم يورد في كل باب أقوال الصوفية السابقين عليه، ذاكراً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي لها علاقة بتلك النقطة التي يدور حولها الباب.

وموضوع المقدمة هو الفضائل الإسلامية كما تناولها صوفية الإسلام، جاعلين منها منهجاً خلقياً لهم، وقد جعل السلمي من كل معنى من المعاني الأخلاقية عند الصوفية باباً في مقدمته، وبذلك تناول عدداً كبيراً من الفضائل الخلقية عند صوفية الإسلام، من خلال مقدمته ذات الأربعة عشر باباً.

وأول أبواب المقدمة في موضوع (صحبة الصوفية) وذلك من حيث الأهمية والأثر البالغ (للصحبة) في سلوك الإنسان.. وقد ركز الصوفية على تلك الناحية، واهتموا بعلاقة الصوفي بأصحابه، وسوف نرى أن الصوفي يسمي أصحابه (الإخوان) وأن أهل التصوف يرفعون من شأن هذه الأخوة الروحية إلى درجة عالية تفوق الأخوة في الدم.. وكيف لا تفوقها، وهي أخوة في الله!

أما الباب الثاني، فموضوعه: المحبة.. وحديث الحب والمحبة عند صوفية الإسلام يطول ويتسع، نظراً لاتساع بحار العشق التي تُغرق (السالك) في محبة الذات الإلهية. إلا أن الصوفية آثروا وضع كلامهم في المحبة في

كلمات ذوقية وعبارات رمزية، حتى لا يتهمهم الجهلة بالتجديف.. ومن هنا كان علينا أن ننظر في كلمات الحب الصوفي، بعين القلب!

وفي الباب الثالث يحدثنا السلمي عن (المعرفة) بالمعنى الصوفي، وسوف نرى أن الصوفية يسعون إلى إدراك لون من المعرفة الإشراقية اللدنية، هي فيض نوراني يتجلى الله به على عباده العارفين. وهذه المعرفة اللدنية تختلف في معناها الصوفي عن (العلم) بالمعنى الظاهري الذي نفهمه الآن.

وبعد (المعرفة) يحدثنا السلمي عن (التوكل) في المفهوم الإسلامي الصحيح، وكما عرفه الصوفية.. بعيداً عن التواكل وترك الكسب والتبطل، وقريب الصلة بالثقة في الله، وزهد المظاهر الفانية.. فالتوكل بهذا المعنى هو إسقاط للتدبير مع المولى عز وجلّ. وفي النهاية يتحدث السلمي عن صفة المتوكل، وثواب توكل الكفاية.

ثم يتناول السُّلمي موضوع (الفتوة) حيث تجتمع مكارم الأخلاق الإسلامية كالأمانة والنجدة والعفو، وغير هذه السمات الخلقية التي تواضع عليها المسلمون الأوائل، ثم تلقاها الصوفية وركزوا على جانبها الروحي العميق..

وهكذا يستمر السلمي، فيحدثنا عن السخاء، والشفقة، والتواضع.. وهي سمات خلقية كدنا أن ننساها في غمرة اندفاعاتنا الآلية وراء كل ما هو مادي.. واعتقدنا أن التنافس والتفوق الفردي والأنانية . وغير ذلك من أخلاقيات الزحام . هو الأسلوب الذي يلائم طبيعة واقعنا.. ولم ننتبه إلى أننا نصنع هذا الواقع، وليس هو الذي يصنعنا!

والباب الأخير من مقدمة أبي عبد الرحمٰن السلمي بعنوان: شرائط التصوف. وهذا الباب في جملته، محاولة لإظهار التصوف الإسلامي على حقيقته، من خلال ما كان عليه أوائل الصوفية.. وكأن السلمي قد شعر . منذ ذلك الوقت المبكر . بخطر أولئك المنحرفين، الذين يلبسون رداء التصوف، ويخفون تحته ما يستوجب الإخفاء من نقائص!

وكتاب (المقدمة في التصوّف) على هذا النحو السابق؛ يعتبر واحداً من أهم كتب التراث التي عنيت بإظهار التصوف الإسلامي في صورته الحقيقية، المستمدة من الكتاب والسنة. وإلى جانب تلك الصورة التي قدمها لنا السلمي للتصوف في هذا الكتاب، قدم لنا السلمي الكثير من رجال التصوف الإسلامي في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ التصوف.. وذلك حين عرض للمعاني الصوفية من خلال أقوال ومواقف هؤلاء الصوفية الأوائل، الذين لا نعرف الكثير عنهم اليوم..

وتبقى لنا نقطة أخيرة يجدر أن نشير إليها، وهي أن الأقوال والعبارات التي ذكرها السلمي لرجال التصوف، لم تكن مجرد عبارات بليغة أو مقطوعات شعرية منمقة، بل كانت كلمات مشايخ الصوفية ترجمة صادقة لأحوالهم مع الله عزّ وجل، وتصوير صادق لسلوكهم الأخلاقي والروحي القائم على فهم صحيح للمبادىء والقيم الإسلامية، وسوف نرى أمثلة لذلك في (المقدمة) فنجد صوفياً كأبي بكر الجريريني، يستحي أن يكلم مريديه عن التوكل، وفي بيته بعض المال..

وهكذا، كانت كلمات مشايخ الصوفية، تصدر عن قلوب يملؤها الإيمان العميق والعمل الصالح، ولهذا بقيت كلماتهم الذوقية وإرشاداتهم الشوقية في وجدان من أتوا بعدهم، كعلامات لهذا الطريق الروحي، ووصايا للمريد الصادق الذي يضع أقدامه على أول سلم المعراج الصوفي.. وكان أبو حامد الغزالي قد لاحظ من قبل في كتابه (المنقذ من الضلال) أن الصوفية يعولون على العمل الصادق وطهارة الباطن، وليس على القول البليغ والكلمات المأثورة، ومن هنا قال الغزالي: الصوفية أرباب أحوال لا أصحاب أقوال.

وعلى الرغم من أهمية كتاب (المقدمة في التصوف) فقد ظل هذا الكتاب ضمن تراثنا المخطوط مهدداً بالفقد والضياع بفعل الزمن وعوامل التلف التي عرفت طريقها إلى أصله المخطوط.

الأصل المخطوط

لا يوجد لكتاب (المقدمة) غير أصل خطي واحد، وقد حاولنا العثور على أية نسخ خطية أخرى لمقابلتها بهذا الأصل الذي تحت أيدينا فلم نجد[1].

ويوجد هذا الأصل المخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية تحت رقم (٢٨٢٢/د ـ تصوف) ويتألف المخطوط من ٣٤ صفحة (مقاس ٢٠ ـ ١٥) تحتوي الصفحة الواحدة على ٢١ سطراً تقريباً (السطر حوالي ١٠ كلمات) مع وجود هامش مناسب.

وحالة المخطوط جيدة، والورق سميك أصفر، كتب عليه الناسخ بخط عادي ـ مقروء في أغلب المواضع ـ وقلم النسخ سميك.. وتوجد على صفحات المخطوط بعض البقع السوداء، كما توجد ورقة ساقطة بعد الصفحة الثانية! وفيما عدا ذلك، لا توجد عبارات أو كلمات ساقطة في سائر صفحات المخطوط، إذ يبدو أن الناسخ كان دقيقاً في الكتابة.

وقد كتب الناسخ بحبر أسود في سطور متوازية، مع وضع بعض العلامات بالحبر الأحمر للتوضيح، وعلى الورقة الأولى كتب بخط جميل:

«كتاب المقدمة في التصوف وحقيقته للإمام أبي عبد الرحمن
محمد بن أحمد بن الحسين السلمي ثم البغدادي رحمه
الله هو أحد أئمة الصوفية توفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة»

وتحمل الورقة الأولى ختم: كتبخانة مجلس بلدي إسكندرية (انظر الصورة فيما يلي) وعلى الورقة الأخيرة كتب تاريخ النسخ (عصر يوم الخميس المبارك، سادس شهر رمضان المعظم قدره، سنة اثنتين وألف من الهجرة)..

(١) عادة ما توجد عدة نسخ خطية للكتاب الواحد. وهذه النسخ الخطية قد يكون المؤلف الأصلي قد كتبها بيده، أو أملاها على تلامذته، ثم تناقلها النساخ بعد وفاته.. ويكون الأصل الذي خطه المؤلف بيده هو أعلى النسخ الخطية قيمة. فإن لم يكن هناك هذا الأصل، فإن أعلى النسخ الخطية قيمة يكون أقربها إلى عصر المؤلف.

وفي أسفل الصفحة، يوجد ختم كتبخانة مجلس بلدي إسكندرية.

وقد حاولنا إصلاح الخلل في المخطوط عند تحقيقه، وذلك بتصحيح الأخطاء النحوية والإملائية التي وقع فيها الناسخ . بقصد أو بدون قصد . مع الإشارة إلى الخطإ الموجود في المخطوط في هامش التحقيق . ووضع الكلمة الصحيحة في المتن.. وفي الهامش أيضاً، وضعنا بعض التعريفات الخاصة بالمصطلحات الصوفية التي وردت في الكتاب، حتى يتيسر فهمها، والاقتراب من المعنى الذي يرمي إليه الصوفية، هذا إلى جانب بعض التعليقات والملاحظات النقدية، كلما كان هناك داع لذلك..

ومن الإضافات التي تمت أثناء تحقيق الكتاب، وضع ترجمة للشخصيات الصوفية التي يذكرها السلمي أو يستشهد بأقوالها، خاصة وأن معظم تلك الشخصيات غير معروفة لنا في الوقت الحاضر.. وقد رجعنا في تقديم تلك الترجمات إلى كتب الطبقات ومشاهير الصوفية.

هذا إلى جانب تخريج الآيات والأحاديث الواردة في الكتاب، مع عمل فهارس لهذه الآيات والأحاديث، وللمصطلحات الصوفية التي وردت فيه، وأيضاً فهرساً بأسماء الأعلام وفهرساً آخر للترجمات الموجودة في هوامش التحقيق.

* * *

ونود في النهاية، أن نورد بعض الملاحظات التي استرعت الانتباه أثناء التحقيق والمراجعة، مع مراعاة أنها لا تعدو كونها ملاحظات خاصة، قد يقبلها البعض ولا يقبلها البعض الآخر.. ومن هذه الملاحظات:

١ . إن السلمي يحاول في مقدمته إرساء دعائم التصوف الإسلامي على قاعدة الكتاب والسنة، وذلك بمحاولته البحث عن الآيات والأحاديث التي تؤيد المعاني التي قال بها الصوفية، ثم بعد ذلك يورد من كلام الصوفية ما يستقيم مع معنى الآية أو الحديث، وبذلك يصبح «الكتاب والسنة» هما المصدر الذي استقى منه الصوفية فكرهم وسلوكهم الخلقي والروحي.. وهذه المحاولة التي قام بها السلمي تعتبر منهجاً سليماً في دراسة التصوف

الإسلامي، إلا أن ذلك من ناحية أخرى . قد دفعه لاستبعاد بعض رجال التصوف الإسلامي، ممن يتميزون بالنزعة الفلسفية كالحسين بن منصور الحلاج!

٢ . إن السلمي قد أورد في مقدمته بعض أقوال أصحاب الاتجاهات الأخرى في الفكر الإسلامي، كالمعتزلة وكان الأحرى به أن يقتصر على رجال التصوف، خاصة وأن كتابه (مقدمة في التصوف).

٣ . إن السلمي لم يتعرض لواحد من أهم الموضوعات الصوفية التي نشأت في تلك المرحلة الهامة من مراحل التصوف، وهو موضوع (الأحوال والمقامات) والذي يشكل الأساس الذي قام عليه الفكر الصوفي كله في المراحل التالية.

٤ . إن وجود أصل خطي وحيد لكتاب (المقدمة) يعني أن هذا الكتاب قد نال حظاً من الإهمال والنسيان بعد وفاة السلمي، على الرغم من أنه واحد من أهم المراجع الصوفية التي تعرضت لحقائق التصوف ولأعلامه البارزين.

وبعد...

فقد حاولنا تقديم كتاب (المقدمة في التصوف) في شكل يليق به من التحقيق والعناية، لعل هذا الكتاب يساعدنا في تكوين صورة حقيقية للتصوف الإسلامي القائم على كتاب الله وسنة رسوله.. ولعل الكلمات التي قالها صوفية المسلمين تجد في الوقت الحاضر من يلقى السمع وهو شهيد!

والله الموفق..

يوسف زيدان

الإسكندرية في نوفمبر ١٩٨٦

كتاب
المقدمة في التصوف
وحقيقته
للإمام أبي عبد الرحمن محمد بن أحمد بن
الحسين السلمي النيسابوري
ثم البغدادي
رحمه الله
هو أحد أئمة الصوفية توفي سنة اثنتي عشرة
وأربعمائة

الأصل المخطوط

(مخطوط رقم ٢٨٢٢/د . تصوف، إسكندرية)

الورقة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين

والصلاة والتسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

باب صحبة الصوفية قال محمد بن أحمد البغدادي من صحب

الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك فمتى نظر إلى شيء من

أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ قصده وقال إبراهيم بصحبة الفقرا

العارفين يصل العبد إلى مقام العارفين حكي عن أحمد بن

عبد الله النشروي أن أبا بكر بن داباد الأرموي رآه في النوم

فقال أي الأعمال وجدته أنفع فقال ما وجدت بعد التوحيد

أنفع من صحبة الفقرا قلت فأي الأعمال أضر فقال الوقوع في الصوفية

ولولا أنهم استوهبوني لكنت من الهالكين وكاد أن يحبط عملي كلامي

فيهم فبفضل معرفتهم نجوت وحكي عن إبراهيم بن شيبان قال

كنا لا نصحب من يقول نعلي وركوتي وقال أبو أحمد القلانسي أستاذ

الجنيد دخلت على قوم من الفقرا بالبصرة فأكرموني وبجلوني فقلت

يوما أين إزاري فسقطت من أعينهم قال إبراهيم بن المولد

دخلت طرسوس فقيل لي إن جماعة من إخوانك مجتمعين في دار

فدخلت عليهم فرأيت سبعة عشر فقيرا كلهم على قلب واحد وقال

أبو سعيد الخراز صحبت الصوفية خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم

خلاف قيل ولم ذلك قال لأني كنت على نفسي وقال ذو النون

لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع

النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالمحاربة وكان من عادة

الأصل المخطوط

الورقة الثانية . الصفحة الأولى

المقدمة في التصوف وحقيقته...



وصلَّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله، والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.
والصّلاة والتسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

باب صحبة الصوفية

قال محمد بن أحمد البغدادي[1]: من صحب الصوفية، فليصحبهم بلا نَفْس ولا قلب ولا مِلك، فمن نظر إلى شيء من أسبابه[2]، قطعه ذلك عن بلوغ قصده.. وقال إبراهيم[3]: بصحبة الفقراء العارفين، يصل العبد إلى مقام العارفين! حكي عن أحمد بن عبد الله الشرويني، أن أبا بكر بن دانيال الأرموني رآه في النوم فقال له[4]: أي الأعمال وجدته أنفع؟ فقال: ما وجدت بعد التوحيد، أنفع من صحبة الفقراء! قال[5]: فأي الأعمال أضر؟ فقال: الوقوع في الصوفية، ولولا أنهم استوهبوني، لكنت من الهالكين، وكاد أن يحبط عملي كلامي فيهم، فبفضل معرفتهم نجوت.

وحكي عن إبراهيم بن شيبان[6]، قال: كنا لا نصحب من يقول: نعلي

---

(١) لعل السلمي يقصد رويم بن محمد بن أحمد البغدادي، المعروف برويم البغدادي، وهو واحد من كبار الصوفية.. انظر ما سنقوله عنه فيما يلي!

(٢) يقصد: شيء من حظوظ نفسه ومطالبها..

(٣) هو شيخ الصوفية، أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم. ولد بمدينة بلخ بخراسان، وكان من أبناء الأمراء، وتحكي كتب الطبقات، أنه خرج في شبابه للصيد مع أقرانه، فناداه هاتف حفي: يا إبراهيم، ألهذا خلقت...! وقد سلك إبراهيم بن أدهم طريق الصوفية بعد سماعه لهذا الهاتف، فخرج إلى مكة وصحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ثم دخل الشام وظل بها حتى توفي سنة ١٦٢ هجرية.

(٤) غير موجودة في الأصل.

(٥) في الأصل: قلت.

(٦) هو أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسيني: الملقب بشيخ الجبل. كان من كبار الصوفية الزاهدين . ومن أشدهم على المدعين، صحب أبا عبد الله المغربي وإبراهيم الخواص، وكانت له كرامات كثيرة.

وركوتي[١]! وقال أبو أحمد القلانسي، أستاذ الجنيد[٢]: دخلت على قوم من الفقراء بالبصرة، فأكرموني وبجلوني، فقلت يوماً: أين إزاري، فسقطت من أعينهم!

قال إبراهيم بن المولد[٣]: دخلت طرطوس[٤]، فقيل لي: إن جماعة مجتمعين في دار، فدخلت عليهم، فرأيت سبعة عشر فقيراً، كلهم على قلب واحد.

وقال أبو سعيد الخراز[٥]: صحبت الصوفية خمسين سنة، فما وقع بيني وبينهم خلاف، قيل: ولم ذلك؟ قال: لأني كنت على نفسي[٦]!.

وقال ذو النون[٧]: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالمحاربة..

---

(١) الركوة (في لسان العرب) هي إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء.

(٢) هو شيخ طائفة الصوفية، أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز البغدادي. أصله من نهاوند، ومولده ونشأته بالعراق، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وصوفياً من المتمسكين بالكتاب والسنة، صحب السري السقطي والحارث المحاسبي وغيرهم.. وتوفي الجنيد في يوم نيروز الحليفة، سنة ٢٩٧ هجرية.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المولد، من كبار مشايخ الرقة. أسند الحديث النبوي الشريف وكان من أفتى المشايخ وأكثرهم علماً.. ومن أصحابه أبو عبد الله الجلاء الدمشقي، وإبراهيم القصار الرقي.

(٤) ثغر من الثغور الإسلامية، مصرت بأمر الرشيد سنة ١٩١ هجرية، وكانت قبل ذلك من معسكرات غزو بلاد الروم.

(٥) هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرار البغدادي: من أوائل الصوفية وأئمتهم، وقيل: إنه أول من تكلم في علم الغناء والبقاء، وصحب المسلمين، من أمثال ذو النون المصري والسري السقطي وبشر بن الحارث الحافي، وتوفي سنة ٢٧٩ هجرية.

(٦) يقصد الخراز أنه كان منشغلاً بعيوب نفسه، ومن يشغل بعيوب نفسه لا ينظر إلى عيوب غيره من الناس.

(٧) هو ذو النون أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري الاخميمي، ولد بالنوبة، وكان أبوه إبراهيم نوبياً.. وذو النون المصري من أشهر الصوفية المسلمين، وقيل: إنه أول من تكلم في الأحوال والمقامات. وكان ذو النون عالماً ومحدثاً إلى جانب كونه من رجال الطبقة الأولى في التصوف، ومن أقواله: كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا وتركاً لها . واليوم يزداد الرجل بعلمه حباً للدنيا وطلباً لها! كان الرجل ينفق ماله على علمه . واليوم يتكسب الرجل . بعلمه مالاً.. وتوفي ذو النون المصري سنة ٢٤٥ هجرية.

باب المحبة[1]

قال أبو القاسم النصرآباذي[2]: المحبة والمحنة نقطتان مقرونتان، ما المحنة بعين المحنة وعين المحبة! فينبغي للمحب أن ينظر إلى المحنة بعين المحبة، حتى تصح له المحبة[3].

أنشدت لبعضهم قوله:

بينَ المحبين سر ليس يفشيه قولٌ ولا قلمٌ للخلقِ يحكيهِ

الحب حرفان، حاء وباء.. والحاء آخر الحروف من الروح، والباء أول الحروف من البدن، والمحب[4] يكون روحاً بلا بدن، وبدناً بلا روح! ولكل شيء عبارة، إلا المحبة، فإنها لا عبارة لها، وهي ألطف وأجل من أن تدخل في العبارة. ولذلك خلق الله تعالى الملائكة للخدمة، والجن للقدرة، والشياطين للعنة، وخلق العارفين للمحبة، فالمحبة نار حطبها أكباد المحبين.. والخوف[5] نار، والحب نور، ولا تكون أبداً نار بلا نور[6].

وقال الجنيد: رأيت صبياً يضرب شيخاً، والشيخ يضحك! فقلت له: لم

---

(١) عنوان الباب ساقط في الأصل.

(٢) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمويه النصرآباذي، شيخ خراسان في وقته نيسابوري الأصل والمولد والمنشأ. كان على دراية بعلم التاريخ والسير، إلى جانب ما كان مختصاً به من علم الحقائق، فكان أوحد المشايخ في وقته علماً وحالاً.. وتوفي ٣٦٧ هجرية.

(٣) يقول الحلاج في هذا المعنى: رأيت المحبة، حبة نصبت على حمالية المحبوب فطارت إليها عصافير القلوب، فلما سقطوا ليلتقطوا، انقلبت عليهم حبة الفخ فاحتبطوا فحدقوا إلى حقيقة تلك المحبة، فإذا هي نقطة باء المحنة قد قلبتها الفتنة، فانقلبت المحبة محنة!!

(٤) في الأصل: والبدن!

(٥) غير واضحة في الأصل.

(٦) ساقطة في الأصل.

تضحك؟ قال: كيف لا أضحك ويده روحي، وسوطه قلبي، وعيشه عيشي، فكيف أشكو[1] من نفسي لنفسي!

ولبعضهم:

إذا ما قنعنا بالرسايل بيننا　　فلا أنت معشوق ولا أنا عاشق

إذا لَمْ يتم البذل والوصل في الهوى　　فإن الهوى من بعد هاتين طالق[2]

وقال سمنون[3]: كان في جيراننا رجل، وكان له جارية، وكان معها مبتلاً شديد الميل إليها. فاعتلت الجارية، فقام الرجل يصنع لها حساءً[4]، فبينما هو يحرك القِدْرة قالت الجارية: آه.. فدهش الرجل، فسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدرة بيده حتى تساقطت أصابعه! قالت الجارية: ماذا صنعت؟ فقال الرجل: هذا موضع قولك آه!!

وأنشد لمحمد بن داود الأصفهاني:

إني لأحسد والديك إذا هما　　نظرا إليك وفاتحاك كلاما

---

(١) في الأصل: شكوا.

(٢) يرى الصوفية في هذه الأبيات، وفي غيرها من أبيات الشعر الرمزي، إشارات ذوقية تشير إلى محبتهم للذات الإلهية.. وقد كان للصوفية من الأسباب القوية ما دفعهم لاستخدام أسلوب الرمز والكناية. فمن هذه الأسباب رغبتهم في الاحتفاظ بمعانيهم الذوقية لأنفسهم فلا يتعرضوا لسوء الفهم من قبل العامة والفقهاء الذين يحكمون بظاهر الأشياء.
وفي هذه الأبيات نرى الصوفي يناجي الذات الإلهية، وكأنه يتوجه بالخطاب إلى محبوبة من البشر.. فيكون قد عبر عن مواجيده ونشوته بشراب الحب الإلهي، دون أن يتعرض في الوقت ذاته لإنكار الذين يتربصون بالصوفية ويتصيدون كلامهم ومعانيهم.

(٣) هو أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص، الملقب بالمحب سمى نفسه سمنون الكذاب! وذلك لأنه أنشد:

فليس لي في سواك حظ　　فكيفما شئت فامتحني

إن كان يرجو سواك قلبي　　لا نلت سؤلي ولا التمني

فابتلاه الله باحتباس البول! فظل يتألم ويصرخ، ويدور على الصبيان في المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب..!! ومن شعره أيضاً:

فإن شئت واصلني، وإن شئت لا تصل　　فلست أرى قلبي لغيرك يصلح

(٤) في الأصل: حسا.

وودت أنهما استعارا ناظري وتأملاك بمقلتي قداما

... حكي عن محمد بن عبد الله البغدادي أنه قال: رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع، قد أشرف على الناس وهو يقول: من مات عشقاً، فليمت هكذا، ألا لا خير في عشق بلا موت.. ثم رمى بنفسه إلى الأرض، فحملوه ميتاً.

وأنشد لبعضهم حين قال:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبرا

قال بعضهم: الصبر في المحبة ترك صدق الصبرا لأن الصبر في المحبة محو المحبة. وترك الصبر في المحبة، صدق الصبر.

ولبعضهم:

الصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وقال أبو الفتح: دخلت على الشبلي[1] يوماً في مرضه. فقلت له: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: كيف أشكو إلى طبيبي طبيبي، والذي قد أصابني من طبيبي! فأخذت المروحة لأروح عنه . فقال:

---

(١) هو أبو بكر دلف بن جحدر (ويقال ابن جعفر) الشبلي: من مشاهير الصوفية، ولد ببغداد وأصله من خراسان.. وكان الشبلي معاصراً للحلاج والجنيد، وله معهما مواقف كثيرة وطريفة، ويقول عنه السلمي في الطبقات: هو أوحد وقته حالاً وعلماً.. وللشبلي عبارات وأشعار كثيرة، تصور حال العشق الإلهي والوجد الصوفي مثل قوله: لسان العلم ما تأدى إلينا بواسطة، ولسان الحقيقة ما تأدى إلينا بلا واسطة.. وقوله: التصوف، الجلوس مع الله بلا هم.
وسأله إبراهيم بن شيبان مرة: كم يجوز في زكاة خمس من الإبل؟ فقال: شاة في واجب الأمر، وفيما يلزمنا نحن (يقصد الصوفية) كلها! وكان يقول: أدنى علامات الفقر (يقصد التصوف) أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها ثم خطر بباله أن يمسك منها قوت يوم . ما صدق في فقره!.. ومن شعره:

تسربلت للحرب ثوب الغرق وهمت البلاد لوجد القلق

فإذ خاطبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق

وتوفي الشبلي سنة ٣٢٠ هجرية.

إذا مرض الحبيب وطال حبه   فحيث الداء ثم يكون طبه
وإن أعيا دواء الطب يوما   فطبك أن يحبك من تحبه

وقال عبد الواحد بن زيد[1]: رأيت رجلاً مهرولاً، ضعيفاً، شاحباً لونه، فسلّمت[2] عليه وقلت له: رياضتك[3] بلغت بك[4] هذا المبلغ؟ قال: لا، قلت: فماذا؟ قال: محبة دائمة، واشتعال نار في فؤادي.. قلت: لمن؟ فصاح صيحة، فغشي[5] عليه. فلما أفاق قلت: يا هذا لا تدعي، ومن ربك ألا تستحي؟ فنظر إلى السماء وقال: بحقي عليك، ألا قبضتني بين الخطوتين.. وسجد، فمكث طويلاً، فلم يبرح! فنظرت، فكأنه لم يكن، فلم أنكر على محب بعد ذلك.

... سأل ذو النون المصري امرأة عابدة في تيه بني إسرائيل عن المحبة، فقالت: ليس لها ابتداء فتدرى، ولا انتهاء فتدرك، لأن المحبوب[6] لا نهاية له! فأول الحب على الكل، وأوسطه على القناعة، وليس لآخره[7] غاية.. ثم غشي عليها، ثم أفاقت وهي تقول:

أحب الله قوماً فاستقاموا   على طرق الوداد فلم يناموا
سقاهم بالصفا من كأس ود   فصاموا في محبته وقاموا

﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن

---

(١) عبد الواحد بن زيد، من أوائل الصوفية . اعتبره ابن تيمية «الصوفي الأول». اشتهر بمواعظه الروحية، حتى قيل: إن رجلاً مات في مجلس وعظه من شدة التأثر، وقيل أيضاً في حقه: «لو قسم بث عبد الواحد بن زيد على أهل البصرة لوسعهم».. وتوفي رحمه الله سنة ١٧٧ هجرية.

(٢) مطموسة في الأصل.

(٣) يقصد الصوفية بالرياضة: المجاهدات الروحية التي يقومون بها، ككثرة الصوم والصلاة والسهر.

(٤) في الأصل: بلغك!

(٥) في الأصل: غشي.

(٦) تقصد العابدة بالمحبوب: الذات الإلهية التي لا يحدها الحد، فليس لله تعالى أول ولا آخر، وهو الأول والآخر سبحانه.

(٧) مطموسة في الأصل.

يوصل﴾[1]. أنهم نظروا إلى سواه[2] بعدما نظروا إليه بعين المحبة! وللشبلي:

جور الهوى أحسن من عدله ... وبخله أظرف من بذله
لو عدل الحب لأهل الهوى ... لمات كل الخلق من عدله

... فصاحب المحبة، ساعة يطلب وساعة يهرب، وساعة يحزن وساعة يطرب، ليس له حال ولا أمر قائم، وكيف يدوم حال من يذبح ساعة ويحيا ساعة، ويشقى ساعة ويغنى ساعة، ويكشف عن فؤاده ساعة، ويحجب عن مراده ساعة.

قال ذو النون، رحمه الله:

وتمنيت أن أراك فلما رأيتكا ... غلبت دهشة السرور فلم أملك البكا

والمحبة نار، والشوق لهيبها.. أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، من طالبني قتلته في هواي شوقاً إلى لقاي، ومن أحبني أحببته، أي أشغفته حتى لا صبر له دوني.

حكي أن أبا الحسين النوري[3] جاء إلى الجنيد، فقال: بلغني أنك تتكلم في شيء من المحبة، فتكلم فيما أثبت حتى أرده عليك!

فقال الجنيد: أحكي بدء الحكاية.. كنت أنا وجماعة من أصحابنا في بستان، فأبطأ علينا من يجيئنا بما نحتاج إليه، فصعدنا بطلع، وإذا بضرير معه غلام جميل الوجه، والضرير يقول له: أمرتني يا هذا بكذا وكذا[4].. ونهيتني عن كذا وكذا فتركت، وما خالفتك في شيء تريده، فماذا تريد مني؟! فقال

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٧.

(٢) في الأصل: من سراه.

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، ويعرف بابن البغوي. خراساني الأصل، بغدادي المولد والمنشإ، وهو من أجل مشايخ الصوفية وعلمائهم، صحب السري السقطي ومحمد ابن علي القصاب.. ومن أقواله: ليس التصوف رسوماً ولا علوماً، ولكنه أخلاق. وتوفي النوري سنة ٢٩٥ هجرية.

(٤) يبدو أن كلمة (ففعلت) سقطت من هذا الموضع.

الغلام: أريد أن تموت! فقال الضرير: ها أنا ذا أموت.. وتمدد وغطى[1] وجهه.

فقلت لأصحابي: ما بقي على هذا الضرير شيء، قد تشبه بالموتى، ولكن لا يمكنه الموت في الحقيقة.. فنزلنا إليه وحركناه، فإذا هو ميت! فقام النوري وانصرف!! حكي أن ذا النون[2] دخل على مريض يعوده، فوجده يئن[3]. فقال له: لا يصدق في محبته من لم يصبر على ضربه! فقال المريض: لا يصبر في محبته من لا يتلذذ بضربه.. فنودي من زاوية البيت: ليس بصادق في محبتنا من لم ييئس من حب غيرنا!!

سئل[4]: كيف محبتك لصديقك؟ فقال: إذا رأيته، أشتهي أن لا أرى سواه، وإذا سمعت كلامه، أشتهي أن لا أسمع شيئاً سوى كلامه. قال المتنبي:

ولو إني استطعت حفظت طرفي   فلم أنظر به حتى أراكا[5]

وقال الشبلي: حقيقة المحبة، أن تهب كلك لمن تحبه، فلا يبقى فيك لك شيء!.. حكي أن بعض المتحابين ركبا البحر، فسقط أحدهما في البحر وغرق، فألقى الآخر نفسه في البحر!

فقام الغواص[6] فأخرجهما سالمين. فقال الأول لصاحبه: أما أنا . فسقطت في البحر، فأنت لم ألقيت نفسك؟ فأنشده:

---

(١) في الأصل: وغطا.
(٢) في الأصل: ذو النون.
(٣) في الأصل: يأن!
(٤) يقصد، سئل أحد الصوفية.
(٥) البيت من قصيدة لأبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي (توفي سنة ٣٠٣ هجرية) مطلعها.
فدى لك من يقصر عن مداكا   فلا ملك إذن إلا فداكا
وجاء البيت في طبعة ديوان المتنبي بهذا الشكل:
ولو أني استطعت خفضت طرفي   فلم أبصر به حتى أراكا
(٦) مطموسة في الأصل.

أنـا غـايـب بـك عـنـي تـوهـمـت أنـك أنـي

وقال بشر بن الحارث[1]: ليس من المروءة أن تحب ما يبغضه حبيبك.. وقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: ما من شيء أشد من فراق الأحبة.

(١) هو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله، الحافي.. لقب بالحافي لأنه كان جالساً يلهو مع أصدقائه في منزله، فطرق رجل الباب، وعندما فتحت له الخادمة سألها: هل صاحب البيت حر أم عبد؟ فقالت: إنه حر! فقال: نعم، فلو كان عبداً لحفظ آداب العبودية مع ربه..

ثم خرج الرجل، وعندما سمع بشر بن الحارث بهذا الحوار من خادمته، هرول في أثر الرجل، وكان حافياً.. ومنذ ذلك اليوم، ظل لا يلبس أحذية قط، ويقول: خاطبني ربي وأنا على هذه الصورة! وعاش بشر الحافي حياة الزهد والتقشف، ومات سنة ٢٢٧ هجرية.

باب المعرفة

فأما المعرفة، فهي[1] أول فرض افترضه الله على عباده، بدليل قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[2] قال ابن عباس، أي ليعرفون..

سئل النبي ﷺ: بماذا عرفت الله عز وجل؟ فقال: «ما شاء الله! إني لا أعرف ربي بشيء، بل عرفت الأشياء به» وقال أبو بكر الصديق: سبحان من لم يجعل لخلقه طريقاً إلى معرفته، إلا بالعجز عن معرفته[3].

وقال أبو الدرداء[4]: سألت رسول الله ﷺ عن المعرفة، فقال: سألت جبريل عليه السلام عن المعرفة، فقال: سألت الله عز وجل عن المعرفة، فقال الله عز وجل: سر من أسراري . لا أودعه إلا في سر[5] يصلح لمعرفتي.

سئل يوسف بن الحسين عن أصل المعرفة، فقال: أصل المعرفة رحمة الله على العبد، ونظره إليه، وتوفيقه له أن يدرك الآية. قال عز وجل: ﴿**يختص برحمته من يشاء**﴾[6]. ثم سئل: بماذا يعرف العبد ربه؟ فقال: العبد عاجز عن

---

(١) في الأصل: فهو.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) ينسب إلى أبي بكر الصديق قوله: «العجز عن درك الإدراك إدراك» وتتردد هذه العبارة كثيراً في مؤلفاته الصوفية.. (انظر الفتوحات المكية لابن عربي . الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي).

(٤) هو أبو الدرداء عويمر بن زيد، من خاصة صحابة النبي ﷺ وهو من كبار قراء المدينة. دعا أبو الدرداء إلى المعاني الذوقية منذ وقت مبكر، وتعلم على يديه أوائل الصوفية.. وتوفي أبو الدرداء سنة ٣١ هجرية.

(٥) أي في قلب يصلح لمعرفتي.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٠٥.

معرفة نفسه، فكيف معرفة ربه، فمن عرف الله بالله، فقد عرفه به، واهتدى إليه، وبه[1] استدل عليه.

سئل الجنيد: بماذا عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي، فلولا ربي، ما عرفت ربي!

وقال أبو الحسين النوري: المعرفة معرفتان[2]، معرفة حق، ومعرفة حقيقة. أما معرفة الحق، فهي إثبات الوحدانية على ما أبرز من الصفات، وأما معرفة الحقيقة، فلا[3] سبيل إليها، لامتناع الصمدانية وتحقيق الربوبية.

وقال أبو يزيد[4]: حسبك من المعرفة أن تعرف أنه يراك، ومن العلم أنه مستغن عن عملك!

وقال بعضهم: الطريق إلى الله، هو الله، لأنه لا يعرف الله إلا بالله، لقوله عز وجلّ: ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾[5].

وقال الشبلي: علامة المعرفة المحبة، لأن من عرفه أحبه.. وقال الجنيد: المعرفة طلوع الحق على الأسرار، بمواصلة لطائف الأنوار.. وقيل: المعرفة تحقيق القلب بوحدانية الله.. وقال بعضهم: عرفت الله به، وعرفت ما دون الله بنور الله.

المعرفة ثلاثة: معرفة اللسان: وهو الإقرار، ومعرفة القلب: وهو التصديق، ومعرفة الروح: وهو اليقين.

وقال ذو النون: أول المعرفة التخيير، ثم الاختيار، ثم الاتصال..

---

(١) في الأصل: وبك.
(٢) في الأصل: معرفتين.
(٣) في الأصل: لا سبيل.
(٤) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان، أصله من بسطام (بلدة على طريق نيسابور) كان جده (شروساً) مجوسياً فأسلم، وأبو يزيد البسطامي من أشهر الصوفية الأوائل، عاش حياة الزهد والتقشف، وعرف بشطحاته الصوفية (وهي أقوال غريبة تصدر عن الصوفي في حالة الوجد).. وتوفي البسطامي سنة ٢٦١ هجرية، ولا يزال قبره يزار إلى اليوم ببسطام.
(٥) سورة النحل: الآية ٩.

وقيل: معرفة الله أن تلزم قلبك على قيام الله عليك. وقيل: معرفة الله ترك التدبير[1] والاختيار.

وقيل: من عرف الله هابه[2] كل شيء، وسقط عنه خوف كل شيء، ومن عرف الله خرس لسانه، وقيل: صحة المعرفة بالعلم، وصحة العلم بالمعرفة، لا يستغني أحدهما عن صاحبه. المعرفة علم القلب بوجود الرب.. المعرفة مطالعة القلب بأفراده على لطائف تعريفه.. وقيل: المعرفة العلم بصفاته، والخبرة بذاته.

حكي أن فقيراً دخل على الحارث المحاسبي، وكان قد صنف كتاباً عن المعرفة، فقال: أسألك مسألة؟ فقال: سل! فقال الفقير: أخبرني عن المعرفة، أحق للعبد على الحق، أم حق للحق على العبد؟ قال: فتحير الحارث وترك التصنيف!

وقال بعضهم: للعارف ثلاث علامات، لسانه بالحكمة ناطق، وقلبه بالمعرفة صادق، وبدنه بالحد موافق! وقال: اطلبوا معرفة الله في قلوبكم، واطلبوا معرفة الديانة من العلماء، فإنهم حجة الله عليكم، ولا تستغنوا بالله عن الله، ولا بالعلم عن العلم واعلموا أن لكل علم علماً . وفوق كل ذي علم عليم.

حكي أن رجلاً جاء إلى أبي الحسين النوري، فقال له: ما الدليل على الله؟! فقال: الله! قال: فما بال العقل؟! قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله!

وقيل: العارفون بالله هم الملوك حقاً.. وقال أبو علي الدقاق[3]: من عرف الله اعتصم بالله، ومن اعتصم بالله نال الهداية من الله..

---

(١) ترك التدبير، أو إسقاط التدبير اصطلاح صوفي يقصد به التوكل. وقد شرح ابن عطاء الله اسكندري ـ تلميذ أبي العباس المرسي ـ هذه النقطة في كتابه (التنوير في إسقاط التدبير).

(٢) أي هاب العارف حدود الله، وسقط عنه خوف ما سواه تعالى.

(٣) هو أبو علي إبراهيم الدقاق، من أوائل الصوفية. عرف بالزهد والتوكل، وقد ذكر لنا الكلاباذي بعض أقواله في التوبة..

وقال الشبلي: من عرف الله زال عنه الحزن..

وقال الجنيد: من عرف الله طال حزنه[1]..

وقال أبو يزيد: ما أعطى الناس من معرفة الله إلا بقدر الحاروسة (يعني الدخنة) وقال أبو بكر الوراق[2]: صدر العارف مشروح، وقلبه مجروح . وبدنه مطروح[3]!

وقال الجنيد: العارفون إذا نظروا، فليس بينهم وبين الله حجاب غير الدنيا، فتهتكوا..

وقال الشبلي: من عرف الله، صفا له العيش وطابت له الحياة.

وسئل أحد[4] المشايخ عن المعرفة فقال: تحقيق القلب بإثبات وحدانيته وكمال صفاته وأسمائه، وأنه المنفرد بالعز والقدرة السلطنة والعظمة، بلا كيف ولا شبه ولا مثال، بنفي الأضداد والأنداد والأسباب عن القلوب.

وقال سهل بن عبد الله[5]: كنت أسير في البر إذ رأيت غلاماً أسود، وبين يديه أغنام، وعلى وجهه من المعرفة أعلام. فقال لي: أنت حضري؟ فقلت: نعم! فقال: بما عرفت مولاك؟ فقلت: بالشواهد! فقال: هيهات، من عرف ربه بالشواهد غرق في بحار الشدائد، وفاته من الله كريم العوائد.. ثم أنشد وجعل يقول:

إني لأعرف مولاي بمولاي ولست آمله إلا لبلواي
هو الجواد فلم يدرك من أحد هويته[6] بدليل العقل والراي

---

(١) أي طال حزنه لكثرة ذنوبه أمام عظمة الله وقدرته!

(٢) هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق، أصله من ترمذ، عاش ببلخ (من بلاد فارس) وله مؤلفات كثيرة في أنواع الرياضات الصوفية والآداب الروحية..

(٣) بدنه مطروح: من كثرة الرياضات الروحية التي تصل به إلى المعرفة.

(٤) في الأصل: بعض.

(٥) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن رفيع التستري، من أئمة التصوف الكبار الذين تكلموا في الزهد والإخلاص وعيوب الأفعال.. ومن أقواله: «الناس نيام، فإذا انتبهوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم».. «أدنى الأدب أن تقف عند الجهل، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة». وقد توفي التستري ٢٨٣ هجرية.

(٦) غير مقروءة في الأصل!

باب التوكل

وقد ذكره الله تعالى في مواضع من القرآن العظيم: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾[1]. أي حسبه الله من جميع خلقه، وقال تعالى: ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾[2]. وقال الله تعالى لرسوله: ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾[3]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو[4] خماصاً وتعود بطاناً»[5].

وقال عبد الله بن مسعود: إنه عز وجل، حسب من يتوكل ومن لا يتوكل، لأن الله عز وجل كافي الخلق، جهلوا أم علموا، لأنه خالقهم، ولا يملك كفايتهم غيره.. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ضمن لي خصلة، أضمن له الجنة»[6].

وقال ثوبان: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تسأل الناس شيئاً..» فكان إذا سقط السوط من يده، لا يكلف أحداً يناوله إياه. فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: تعاهد ثوبان والإمساك! وقال ﷺ: من توكل وقنع، كفي الطلب[7].

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٤) ساقطة في الأصل، وتوحد في الحديث الشريف!

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن، والترمذي في الصحيح (باب الزهد) وابن حنبل في الجزء الأول من المسند.

(٦) وفي صحيح البخاري: من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة: ورواه الترمذي عن سهل بن سعد بلفظ: من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة.. وأخرجه ابن حنبل في المسند، الجزء الخامس ص ٣٢٣.

(٧) انظر الحديث برواية أخرى في سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ١٤.

وقال علي بن عبد الرحيم القناد[1]: دخلت قرقسيا سنة خمس عشرة وثلاثمائة، فرأيت فيها شيخاً يعرف بأبي الأزهر له أربعمائة من التلامذة كلهم يقول بالتوكل وترك الكسب.

وقال الحسن البصري[2]: من توكل وقنع ورضي، آتاه الشيء بلا طلب.

... حكي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: توكل علي أكفك، ولا تتول غيري أخذلك، فإنه[3] من استغنى بالله اكتفى، ومن انقطع إلى غير الله تعنَّى.

وقال الجنيد: لا تتهم رزقك الذي كفيته، واعمل عملك الذي كلفته، فإن ذلك[4] من عمل الكرام والفتيان[5].

وقال سفيان بن عيينة، قيل لأبي حازم[6]: ما مالك؟ فقال: في ما نال[7] الثقة بالله، والاياس مما في أيدي الناس.. وقال الحسن البصري: من اتكل إلى حسن الاختيار من الله، فالواجب عليه أن لا يتمنى أنه في غير حاله الذي اختار الله له[8].

نكتة[9]: أخوف[10] الناس هم[11] أسوأهم بالأرزاق ظناً..

---

(١) هو أبو الحسن علي بن عبد الرحيم الواسطي القناد، من أعلام الملامتية (الصوفية الذين يكتمون حقيقة صلاحهم خوفاً من الفتنة) اشتغل بالحديث، توفي ٣٠٩ هجرية.

(٢) هو الحسن بن يسار البصري، سلف الأمة، وأستاذ الصوفية والمتكلمين. كان سيد البصرة وأكبر علمائها في وقته.. ولد سنة ٢١ هجرية.

(٣) في الأصل: لكنه.

(٤) في الأصل: من ذلك.

(٥) يقصد الصوفية بالفتيان، المريدين الصادقين من أهل الطريق.

(٦) هو أبو حازم سلمة بن دينار المديني، من أئمة التابعين الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة.

(٧) في الأصل. مالان!

(٨) يشير الحسن البصري هنا إلى المقام الذي تكون فيه النفس راضية مرضية، وهو ما يعرف عند الصوفية بمقام الرضا.

(٩) النكتة هي الإشارة الدقيقة لمعنى بعيد، ونكت في اللغة: أشار (انظر: لسان العرب لابن منظور) وعند الصوفية، النكتة هي عبارة بسيطة تحتوي كلماتها على معنى عظيم.

(١٠) غير مقروءة في الأصل.

(١١) في الأصل: هما

قال سهل بن عبد الله: من اهتم بالخبر، فليس له عند الله قدر.. وقيل لأبي عثمان[1]: من أين تأكل؟ فقال: إن كنت مؤمناً، فأنت مستغن عن هذا السؤال، وإن كنت جاحداً، فلا خطاب معك. ثم تلا: ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**﴾[2].

وقال أبو يزيد البسطامي: يقول الله عز وجل، من أتاني منقطعاً، جعلت إرادتي في إرادته وجعلت له حياة لا موت فيها.

---

(١) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، أصله من الري. كان أوحد الصوفية في وقته، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور ومات أبو عثمان بنيسابور سنة ٢٩٨ هجرية.

(٢) سورة هود: الآية ٦.

باب صفة المتوكل

أمر الله سبحانه وتعالى بالتوكل، وجعله مقروناً بالإيمان، لقوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[1]. فجعل التوكل عليه، حقيقة الإيمان. والتوكل جند الله في الأرض، يقوي به قلوب المريدين[2] والجوع[3] طعام الله في الأرض، يشبع به أبدان الصديقين، والحرص راية الله في الأرض، يضعها على رقاب الراغبين!

وقال سهل بن عبد الله: أول مقام التوكل، أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء.. وترك الأسباب إنما هو وبال.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٣.

(٢) المريد عند الصوفية هو المبتدئ الذي يبدأ في سلوك طريق المجاهدات الروحية ملتمساً العون من شيخ يعرفه أصول التصوف وحقائقه.. وقد اهتم الصوفية بالرابطة الروحية بين الشيخ والمريد (انظر على سبيل المثال: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، بتحقيق د. حسن الشرقاوي).

(٣) للجوع عند الصوفية مفاهيم خاصة، وقد دعا إليه الصوفية منذ وقت مبكر كعلامة على الزهد وترك الدنيا. ويرتبط الجوع عند الصوفية بمحاربة النفس ومطالبها الحسية، خاصة الشهوة الجنسية، وهو بذلك باب للتفرغ للعبادة، وللتخلص من أوزار الجسد.

وقد برز الجوع عند زهاد الشام الأوائل، وكان من أبرز سمات الزهد في الشام. ويخبرنا الكلاباذي أن الزهاد في الشام سموا بالجوعيين فقد اعتبروا الشبع أمراً يورث اللامبالاة، وينأى بالنفس عن التفكر.. ومن أوائل الزهاد الذين اتخذوا طريق الجوع، عمر بن الأسود السكوني، وأبو القاسم بن عثمان (المتوفي سنة ٢٠٠ هجرية) وأبو سليمان الداراني.

وقد مثل لنا الداراني أثر الشبع في النفس بأنه رأى طائرين يلتقطان الحب، فلما شبعا أراد الذكر الأنثى! فقال: لما شبعا، دعته نفسه إلى ما ترى.. ومن أقوال الداراني: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

سئل ذو النون المصري عن التوكل فقال: خلع الأرباب، وترك الأسباب.. وقال رويم[1]: التوكل إسقاط رؤية الوسائط . والتعلق بأعلى[2] الوثائق.. وقال الجنيد: التوكل اعتماد جواهر القلوب على الله بإزالة[3] الأطماع عما سواه. ويقال ذاتية التوكل: انتظار السبب من المسبب، من غير رؤية السبب، بلا اهتمام ولا كرب ولا حزن ولا طرب..

وقال إبراهيم بن أدهم: التوكل أن يستوي عندك أفخاذ السباع والمتكيء على الحشايا[4].

وقال الدقاق: التوكل رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد.. وقال رويم: التوكل الثقة بالوعد.. وقال أبو عثمان: التوكل الصبر على الدنيا، وقطع القلب عنها.. وقال الخواص[5]: سنة المتوكلين، التوكل، وهو اعتماد القلب على أن الله تعالى هو الخلاق الرزاق، وهو المعطي للأشياء، المانع، الضار، النافع، القابض، الباسط، لا معجل لما أخر ولا مؤخر لما عجل، وأن العبد بحركته لا يزداد في رزقه، ولا بعدم سعيه[6] وقعوده وترك طلبه ينقص من رزقه، لأن الله تعالى قد قسم الأرزاق وفرغ منها، وتولى القيام بالقسمة دون غيره، فبعض الرزق يجيء بطلب وبعضه يجيء بغير طلب. فمن من أهل المعرفة، يستحي من الله جل جلاله أن يتوكل عليه ليكفيه أمر رزقه، خاصة لأن الكفاية من الله قائمة للخلق، فهو يستحي منه أن يبدي شيئاً تولى الله كفايته، إنما يتوكل على الله في أمر الآخرة الذي لم يضمن له كفايته، مثل

---

(١) هو رويم بن أحمد البغدادي، من كبار صوفية بغداد. كان فقيهاً على مذهب داود الأصفهاني، ومحدثاً ومقرئاً وعالماً بالشريعة وأخلاق الفتوة والتوكل.. توفي سنة ٣٠٣ هجرية.

(٢) في الأصل: بأعلا.

(٣) في الأصل: بإزلة.

(٤) ليس التوكل المشار إليه في عبارة إبراهيم بن أدهم هو توكل عوام الناس، فالإشارة هنا إلى توكل خواص الخواص.

(٥) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص: من أقران أبي القاسم الجنيد والنوري. له مقامات صوفية عالية وعبارات ذوقية، عاش حياة الزهد والتوكل توفي ٢٩١ هـ.

(٦) في الأصل: بعدم سعيه!

الموت وروعته، والسكون إلى الله عند نزوله، ووحشة القبر وإفراده فيه، ولقاء منكر ونكير، والبعث والنشور وطول القيام والوقوف في القيامة، وشدة الحر في يوم طويل.. فاعمد إلى هذا التوكل إذا أحكمت التوكل على الله، فهذا توكل قد غفل عنه كثير من المتوكلين.

وقال: من ترك التدبير، عاش في راحة التوكل، وهو أن يكون العبد كالطفل الصغير في حجر أمه، تقلبه كيف شاءت بأحسن تدبير!

وقال إبراهيم الخواص في «كتاب المتوكلين»: هو أن لا يركن القلب إلى مال ولا سبب ولا مخلوق[1]، بل يركن القلب إلى الله حتى يجد للمنع حلاوة ما يجد عند العطاء، وهو سكون القلب إلى ما في الغيب مما قسم له[2] وغيبه وأخفاه إلى تو[3]، فيكون سكونه إلى ما في اليد، لأن ما في اليد تحدث عليه الحوادث، وما عند الله باق، يأتي به في أوقاته.. فإذا عرف ذلك العبد معرفة غير منقطعة، كان قوياً عند زوال الدنيا وإقبالها، وعند المنع والعطاء.

وقيل: الرزق ثلاثة: رزق العامي من الحركة، ورزق الخاص من القسمة، ورزق خاص الخاص من القدرة!

وقال محمد بن كرّام[4]: حسبك من التوكل أن لا تطلب لنفسك ناصراً غيره، ولا لرزقك خازناً غيره، ولا لعلمك شاهداً غيره.

وقيل لإبراهيم بن شيبان: ما هو التوكل؟ فقال: هو سر بين الله وبين العبد، فالواجب أن لا يطلع على سره غيره.

---

(١) في الأصل: ولا لسبب ولا لمخلوق.

(٢) في الأصل: إليه.

(٣) أي إلى ميقات معلوم، وموعد محدد.

(٤) هو محمد بن كرام أبو عبد الله السجستاني، وهو شيخ طائفة (الكرامية) وهي فرقة من أهم فرق المسلمين.. وتوفي محمد بن كرام سنة ٢٥٥ هجرية، وهي السنة التي حدثت فيها ثورة الزنج بالبصرة.

قال يحيى بن معاذ الرازي[١] التوكل ثلاث درجات، أولها: ترك الشكاية، والثاني: الرضى بالمقسوم، والثالث: المحبة، فأولها: للصالحين، والثاني: للأبرار، والثالث: للأنبياء.

وسئل الشبلي[٢] عن التوكل، فقال: نسيان التوكل[٣] في وقت الحضور.. ثم قال:

كم حاجة إليك[٤] أسترها أخاف عند التلاق أذكرها

وقال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة[٥]، فقد طعن في السنة.. ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان!

---

(١) هو يحيى بن معاذ الرازي، الملقب بالواعظ، من كبار صوفية الري، كان من أسرة عرفت بالزهد والتقشف، خرج مع أحد إخوته إلى خراسان، ورار نيسابور وبلح من بلاد فارس. وللرازي مؤلفات في التصوف، إذ يذكره الكلاباذي ضمن الذين صنفوا في المعاملات الروحية، كما اشتهرت عنه عبارات صوفية وأقوال مأثورة في شكل حكم ذوقية.. من ذلك قوله: الدنيا دار أشغال، والآخرة دار أهوال، ولا يزال العبد بين الأهوال والأشعال، حتى يستقر به القرار إما إلى جنة وإما إلى نار.. وتوفي الراري في نعض قرى حوزحان . بخراسان ـ سنة ٢٥٨.

(٢) في الأصل: الشيبي.

(٣) مطموسة في الأصل.

(٤) في الأصل: إلى إليك.

(٥) يقصد طلب الرزق.

باب ثواب توكل الكفاية

المتوكلون على ثلاث طبقات: توكل المؤمنين، وتوكل أهل الخصوص، وتوكل خصوص الخصوص، فهو كما قال الشبلي حين سئل عن التوكل، فقال: أن تكون لله كما لم تكن، فيكون الله لك كما لم يزل!

فأما توكل المؤمنين، فشرطه ما قال أبو تراب النخشبي[1] حين سئل عن التوكل فقال: طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والانقطاع إلى الله بالكلية، فإن أعطى شكر، وإن منع صبر راضياً وموافقاً للقدر..

سئل ذو النون عن التوكل، فقال: ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وأما توكل الخصوص، فهو[2] كما قال أبو العباس بن عطاء[3]: من توكل على الله بغير الله، لم يتوكل على الله، حتى يتوكل على الله بالله ولله، ويكون متوكلاً على الله في توكله، لا لسبب آخر.. وكما قال أبو

---

(١) هو أبو تراب عسكر بن محمد بن حصين النخشبي، من جلة مشايخ خراسان المذكورين بالعلم والتوكل والورع. اعتبره السلمي ضمن رجال الطبقة الأولى، صحب أبا حاتم العطار وحاتم الأصم وغيرهم من كبار مشايخ الصوفية.. وتوفي في البادية . ويقال: نهشته السباع سنة ٢٤٥ هجرية.

(٢) ساقطة في الأصل.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي، من مشايخ الصوفية وعلمائهم.. صحب إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد، وكان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه ويجله.. ومن أقواله: أصح العقول عقل وافق التحقيق، وشر الطاعات طاعة أورثت عجباً، وخير الذنوب ذنب أورث توبة وندماً.. وتوفي ابن عطاء الأدمي ما بين ٣٠٩ و٣١١ هجرية.

يعقوب النهرجوري[1]: التوكل موت النفس، وذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة.

وأما توكل خصوص الخصوص، فهو كما سئل الجنيد عن التوكل، فقال: اعتماد القلوب على الله في جميع الأحوال.. وقال سهل بن عبد الله: يعطى أهل التوكل ثلاثة أشياء: حقيقة اليقين، ومكاشفة الغيوب، وقرب الرب.. وقال أبو بكر الكتاني[2]: من عزم على[3] التوكل فليحفر لنفسه قبراً، ويدفن نفسه فيه ويتوكل على الله في دفن نفسه! ثم إذا أخرج، توكل عليه في التوكل عليه.

سئل حاتم الأصم[4]: على ماذا أتيت أمرك من التوكل على الله؟ فقال: على أربع خصال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنت به نفسي. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتي بغتة، فأنا أبادره. وعلمت أني لا أخيل من عين الله حيث كنت، فأنا أستحي منه..

وسئل أبو بكر الجرييني عن التوكل، فلم يجب! فقيل له في ذلك،

---

(١) هو أبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أيوب النهرجوري، من علماء التصوف. صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي وغيرهم، وصنف رسائل وكتباً في علوم الإشارة الصوفية، وكان رحمه الله يقيم بالحرم النبوي الشريف حتى توفي به.. ومن أقواله: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب تقوى، والناس سفر! وتوفي النهرجوري سنة ٣٠٣.

(٢) هو أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني، الملقب بالغوث، من كبار صوفية بغداد، لقبه معاصروه بسراج الحرم، تكلم في التوبة والزهد والسماع وغيرها من الموضوعات الصوفية، وألف بعض الرسائل في هذه العلوم الذوقية.. وكان الكتاني أول من تحدث عن حكومة الباطن التي يرأسها القطب وبعده الأبدال والنقباء!

ومما يحكى عنه، أنه رأى رجلاً أشيب الشعر يسأل الناس، فقال: هذا رجل أضاع أمر الله في صغره، فضيعه الله في كبره.. وتوفي أبو بكر الكتاني بمكة المكرمة سنة ٣٢٢.

(٣) إلى هنا تنتهي ورقة ٧ ب من المخطوطة، وبعدها يتغير الخط وقلم النسخ.

(٤) هو أبو عبد الرحمٰن حاتم بن عنوان بن يوسف الأصم، من قدماء مشايخ خراسان، ولد ببلخ ثم زار بغداد واجتمع فيها بفقهاء الحديث ومشايخ الصوفية، وشارك في معارك الفتوح: وعرف بالزهد والعبادة.. وتوفي حاتم الأصم سنة ٢٣٧ هجرية.

فقال: في بيتي أربع دوانق[1]، حتى أذهب فأخرجها، فإني أستحي من الله أن أتكلم في التوكل، وفي بيتي أربع دوانق! وقال: المتوكل، لا يهتم اليوم بآنيه، لمعرفته بقسميته.

قال سفيان الثوري[2]: لو أن السماء لم تقطر، والأرض لم تنبت، ثم اهتممت بشيء من رزقي لظننت أني كافر!

قال عامر بن عبد القيس[3]: والله ما اهتممت برزقي منذ قرأت: **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾**[4].

نكتة: كن آمناً بالله، ولا تكن آمناً عن الله، واطرح تدبيرك إلى من خلقك تسترح.

وقيل: وما الراحة؟ فقال: ترك مطالبة ما لا يجري في القسمة.. والمتوكل لا يسأل، ولا يرد، ولا يحبس.

وقال بعضهم: التوكل لا يصح للمتوكل حتى تكون[5] السماء عنده كالصخر[6]، والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء قطرة، ولا ينبت من الأرض نبات، ويعلم مع ذلك، أن الله عز وجل لا يخلفه ما ضمن له من الرزق.. من يكل أمره إلى الله، فإنه يكفيه هم الدارين، قال الله عز وجل:

---

(١) الدانق قطعة صغيرة من العملة المتداولة في ذلك الوقت.. وفي (لسان العرب) هي ما يعادل سدس الدرهم.

(٢) هو سفيان بن سعيد الثوري، من أوائل صوفية الكوفة. عاش حياة التقشف وكان له مدرسة في الزهد، وعرف بانقطاعه عن الدنيا لطلب العلم، وبسياحاته في الأرض على طريقة الصوفية.. ولقب سفيان الثوري بأمير المؤمنين في الحديث، لدرايته الواسعة بالحديث النبوي. وقد عاش الثوري ما يقرب من ٦٢ عاماً، قضاها في السياحة وطلب العلم، حتى توفي سنة ١٦١ بالبصرة.

(٣) هو عامر بن عبد الله بن عبد قيس، من أوائل الزهاد بالبصرة. عاش حياة الزهد والتوكل في وقت مبكر، وينسب له القول: لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً.. وتوفي ببيت المقدس سنة ٦٠ هجرية.

(٤) سورة هود: الآية ٦.

(٥) في الأصل: يكون.

(٦) تصعب قراءتها في الأصل.

﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾[1] قال حاتم الأصم، معناه: وما لنا لا نتقي الله، وقد أعطانا الإسلام والهدى..

وقال إبراهيم الخواص: إن المتوكل على الله، لو جاء الأسد من خلفه، فالتفت، خرج من التوكل!

حكي عن عثمان بن تزدار قال: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: قطعت البادية مراراً على التجريد[2]، فكنت أساكن الواردين من خلفي، ثم خرجت خرجة، اعتقدت فيها اعتقاداً، وعاهدت الله عهداً، وسألته التوفيق أن لا أساكن مستقبلاً ولا مستدبراً، ولا التفت يميناً ولا شمالاً، فخرجت بهذه النية، فلما صرت في بعض سواد العراق، كنت أسير يوماً بين الصلاتين في موضع «سبع»، فسمعت خلفي حساً، فطالبتني نفسي بالالتفات، فذكرت العهد[3] بيني وبين الله، فبقيت على حالي، وسكنت نفسي على الفزع، حتى قرب المشي، وأحسست[4] بمشي الأسد وزئيره. ومشيت على حالي، فإذا خده على كتفي الأيمن، وخد آخر على كتفي الأيسر! فثبت الله جناني، فلحس حذائي ثم رجع في طريقه. ومشيت أنا على حالتي، ورجوت أنه قد صح التوفيق فيما اعتمدته! انتهى[5].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٢. وفي الأصل المخطوط: وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدى سبيلنا!!

(٢) السير على التجريد، واحدة من المجاهدات الصوفية: وفيها يخرج الصوفي للسياحة وقد أسقط تدبيره تماماً مع ربه. ويقال: على تجريد النفس من كل ما سوى الله عز وجل!

(٣) في الأصل: العقد.

(٤) في الأصل: حست.

(٥) هذه الحكاية، من الكرامات الصوفية التي تتحدث عنها كتب الطبقات. والكرامة هي حدث خارق للعادة يجريه الله على يد أوليائه ليثبت فؤادهم أو ليمتحنهم بها! وقد ينكر البعض كرامات الأولياء.. وقد ناقش هذه القضية حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه «الاحياء» مناقشة مستفيضة، ويقول الصوفية: إن من ينكر كرامات الأولياء ينكر معجزات الأنبياء. فللأنبياء معجزات، وللأولياء كرامات..
ويذكر اليافعي في كتابه (نشر المحاسن الغالية) أن كتب أهل السنة ناطقة بجواز الكرامة ووقوعها، ويحتجون عليها في كسب الاصر بالمنقول والمعقول والمتواتر بين الناس..
ويقول اليافعي: ظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً، وواقع نقلاً أما جوازه بالعقل، فلأنه ليس بمستحيل في قدرة الله.
أما وقوع ذلك بالنقل فقد أخبر بذلك القرآن الكريم والأخبار والآثار بالإسناد بما يخرج عن الحصر والتعداد.

باب الرضا

قال الله عز وجل: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[1]. كما سئل عن الرضى بعض المشايخ فقال: أن ترضى بمر القضاء.

وقال النبي ﷺ: «يا معشر الفقراء، أعطوا الرضا من قلوبكم، تثبتوا بثبوت فقركم، وإلا فلا..».

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الرضى ثلاثة أشياء: ترك الاختيار، وسرور القلب بمر القضاء، وإسقاط التدبير من النفس حتى يحكم الله لها وعليها.

وقال ﷺ: «ثلاث يدرك بهن العبد رغائب الدنيا والآخرة، الصبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والدعاء في الرخاء..».

وقال الحسن البصري: ما قضى للمؤمن من قضاءٍ قط، أحبه أو كرهه، إلا كان له خيراً[2].

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٩.

(٢) تشير عبارة الحسن البصري: إلى الفكرة التي ستصبح فيما بعد واحدة من أهم نظريات علم الكلام وهي نظرية (الصلاح والأصلح).. فقد ذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أن الفعل الإلهي في الخلق يحقق دائماً (الأصلح) وليس الصالح فحسب. إذ إن الله تعالى أعلم بشؤون خلقه حتى من أنفسهم.. فقد يطلب الإنسان من ربه شيئاً وهو يظن أن خيره في هذا الشيء، وربما أجاب الله طلب الإنسان، وربما فعل به شيئاً آخر.. ففي الحالة الأولى يكون طلب العبد هو (الأصلح) وليس الصالح فحسب، ولذا فعله الله له. وفي الحالة الثانية يكون ما طلبه العبد هو في ظنه، ولكن في العلم الإلهي أن ما قضى الله به هو (الأصلح) فالله على هذا النحو يقضي بالأصلح على خلقه!.. حتى وإن ظنوا خلاف ذلك.

تستند هذه النظرية في أساسها على فكرة (العناية الإلهية) في الخلق. فقد يقضي الله بأمر على العبد ويكون ظاهره البطش ولكن باطنه الرحمة.. ومثال ذلك الأفعال التي قام بها (الخضر) في رحلته مع موسى. عليه السلام. فهي من أقدار الله التي ظاهرها البطش ولكن حقيقتها الرحمة الإلهية السارية في الكون بمقتضى عنايته عز وجل لخلقه. (انظر: سورة الكهف: آية ٥٦ وما بعدها).

وقال بعض المشايخ: سمة الراضين قطع الاختيار والمنى، بحكم الله وقضائه، وإيثار محبة الله على محبة النفس(١).

قال(٢) بشر الحافي: الراضي(٣) عن الله، إذا ابتلاه في بدنه، لم يحب العافية، فإن عافاه لم يحب ينقله، حتى يكون هو الذي يحوله!! وإن أغناه، لم يحب أن يفقره، وإن أفقره(٤)، لم يحب أن يغنيه.. وأن يرضى ما يرضاه، ويهوى ما يهواه!

وقال الفضيل بن عياض(٥): استخيروا، ولا تخيروا، فكم من عبد تخير لنفسه أمراً، كان هلاكه فيه.

وقال أبو سليمان الداراني(٦): إذا سلم القلب من الشهوات، فهو راض!

وقال سهل بن عبد الله: خلق الله تعالى الخلق، وجعل حجابهم تدبيرهم، فاترك تدبيرك إلى مولاك ووليك، يرعاك ويحفظك.

سئل أبو الحسين النوري عن الرضى، فقال: لو كنت في الدرك

---

(١) في الأصل: نفسه.

(٢) ساقطة من الأصل.

(٣) في الأصل: الرضى.

(٤) في الأصل: فقره.

(٥) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، ولد بسمرقند، ونشأ بأبيورد وقد اعتبره الكلاباذي من أوائل الصوفية، ووضعه السلمي على رأس الطبقة الأولى منهم.. وللفضيل بن عياض سيرة تناقلها الصوفية بعد وفاته، كما تناقلوا عباراته الصوفية. وتوفي الفضيل بن عياض بمكة المكرمة سنة ١٨٧ هجرية.

(٦) هو أبو سليمان عبد الرحمٰن بن عطية الداراني، مس أهل داران.. من كبار صوفية الإسلام، عاش حياة الزهد والورع والاشتغال بأمور الدين والابتعاد عن الدنيا، وكان يقول: من صارع الدنيا صرعته! ومن أقواله أيضاً: لكل شيء مهر، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها.. ويحكى أنه كان في خلوته يدعو الله، فاشتد البرد، فخبأ إحدى يديه من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة.. فأخذه النعاس وهو على هذا الحال، فسمع هاتفاً يقول: يا أبا سليمان قد وضعنا في يدك الممدودة ما نالك مس خير الليلة، ولو كانت الأخرى، لوضعنا فيها أيضاً!!
قال الداراني: فآليت على نفسي ألا أدعو الله إلا ويداي خارجتان، حراً كان الزمن أو برداً..
وتوفي أبو سليمان الداراني سنة ٢١٥ هجرية.

الأسفل[1] من النار، كنت أرضى ممن هو في الفردوس الأعلى!! وسئل الشبلي عن الرضى، فقال: لو أن جهنم على عيني اليمين، ما سألته أن يحولها إلى الشمال!

وقال جعفر الصادق[2] رضي الله عنه: العبودية ثلاثة: الأمر بوعد الله، والشغل بأمر الله، والصبر لحكم الله..

قال أبو عثمان النيسابوري: أنا منذ أربعين سنة، ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته.. وقال أيضاً: الرضى سرور القلب بمر القضاء، وأفضل الرضى أن لا تسكن إلى الرضى، والحياة الطيبة في الرضى!

وسئل الشبلي: في حال الرضى، هل يسأل الجنة أو يستعيذ من النار؟ فقال: الراضي لا يسأل الجنة، ولا يستعيذ من النار[3]...

---

(١) ساقطة في الأصل.

(٢) من أئمة الإسلام، وهو من أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، اعتبره الشيعة الاثني عشرية الإمام السادس في سلسلة الأئمة العلويين، واعتبره الصوفية أحد أئمتهم الروحيين.. وتوفي الصادق في المدينة سنة ٢٢٨ هجرية.

(٣) كلمة في الأصل غير مقروءة تماماً.

باب الفتوة[1]

سئل سفيان الثوري عن الفتوة، فقال: العفو عن زلل الإخوان.. وأنشد الفقيه منصور في معناه:

هبني أسأت كما زعمت ... فأين عاقبة الأخوة
وإذا أسأت كما أسأت ... فأين فضلك والمروة

... ومن الفتوة أن يحفظ الفتى على نفسه هذه الخمسة أشياء، وهي: الأمانة، والصيانة، والصدق، والأخوة الصالحة، وإصلاح السريرة. فمن ضيع واحدة منهن، فقد خرج عن شرط الفتوة.

وقال بعض الحكماء: من وجدت فيه ست خصال، فاحكم له بالفتوة التامة، وهو أن يكون شاكراً للقليل من النعمة، صابراً على الكثير من الشدائد، يداري[2] الجاهل بحلمه، ويؤدب البخيل بسخائه، ولا يطلب عوضاً كما يطلبه أحد[3] من الناس، ولا ينقض ما كان بناه من الإحسان من قبل.

وقال عمرو[4] بن عبيد[5]: لا تكمل مروءة الرجل، حتى تجتمع فيه

---

(١) عنوان الباب ساقط من الأصل، ويبدو أن الناسخ قد سها عنه.. والفتوة عند الصوفية . كما سنراها في هذا الباب . أحد مكارم الأخلاق التي يتناصحون بها. وقد استفاض في الحديث عن الفتوة، فتى بغداد، الحسين بن منصور الحلاج . قتل ببغداد سنة ٣٥٩ هجرية، وذلك في أشعاره وعباراته الذوقية. (انظر: كتاب الطواسين) . ولكن السلمي لم يذكر في هذا الباب شيئاً من أقواله.

(٢) انظر الحديث النبوي: مداراة الناس صدقة.

(٣) في الأصل: حمده.

(٤) في الأصل: عمر.

(٥) هو عمرو بن عبيد المعتزلي البصري، من أئمة المعتزلة.. والمعتزلة فرقة كلامية يمثل أصحابها الاتجاه العقلي في الفكر الإسلامي. ونشأت هذه الفرق الكلامية بعدما توسع =

ثلاث خصال، يقطع رجاءه عما في أيدي الناس، ويسمع الأذى فيحتمله، ويحب للناس ما يحبه لنفسه.. وقيل لبعضهم: ما المروءة؟ فقال: لا تذكر أحداً بسوء.

... ومن أدب الفتوة، إذا ورد الضيف، يبدأ أولاً بإنزاله وبإكرامه، ثم بإحضار الطعام، ثم يثلثه بالكلام الطيب. ألا ترى كيف بدأ إبراهيم بالطعام بعد السلام، قال تعالى: ﴿**فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**﴾[1] وهو تعجيل ما حضر[2].

وقال محمد بن علي الترمذي[3]: ليس من الفتوة طلب الأجر على العمل، فإن طلب بالعمل أن يأخذ بدله أو أجره . فقد بان عن حقارة نفسه وخسته! ألا ترى سحرة فرعون لما جاؤوا إليه قالوا: ﴿**إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين**﴾[4] طلبوا الأجرة منه، وكان عاقبة إبطال سعيه[5]..

وقال أيضاً: ليس من الفتوة تذكر الصنائع وتردادها على من صنعت

= المسلمون شرقاً وغرباً، ودخول أهل الملل الأخرى في الإسلام.. إذ أن أصحاب الديانات الأخرى بدأوا في مناقشة قضايا الإسلام، وذهب بعض منهم إلى محاولة التشكيك في هذه القضايا. فقام علماء الكلام للدفاع عن الحقائق الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على شبهات الملحدين.

(١) سورة هود: الآية ٦٩.

(٢) الإشارة هنا إلى قصة الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط، فمروا في طريقهم بسيدنا إبراهيم، ونزلوا ضيوفاً عليه وبشروا زوجته سارة بإسحاق ويعقوب.. (انظر سورة هود: الآية ٧٠ وما بعدها).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن، الملقب بالحكيم الترمذي.. من مشاهير الصوفية، له نظرية خاصة في «الولاية» وضعها في كتابه «ختم الأولياء». وللحكيم الترمذي مؤلفات كثيرة حفظها لنا التاريخ، فإلى جانب كتابه السابق الذكر، يوجد له ما يقرب من ثلاثين مؤلفاً، تدور حول موضوعات التصوف والحديث النبوي وغير ذلك من العلوم الدينية. وقد ولد الحكيم الترمذي أوائل القرن الثالث الهجري، وتوفي سنة ٢٨٥ هجرية.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١١٣.. وفي الأصل المخطوط: أين لنا الأجر إن كنا نحن الغالبين!

(٥) قد يبدو هذا المعنى الذي أشار إليه الترمذي غريباً علينا. ولكنه في الحقيقة قصد الكلام عن مطالبة العبد لربه بالثواب على عمله الحسن، وهذا لا يصح مع الله عز وجل.. وقد قالت رابعة العدوية في هذا المعنى: ما عبدته خوفاً من ناره أو طمعاً في جنته، فأكون كأجير السوء، إن عمل طلب الأجر.

معه. ألا ترى فرعون كيف ذكر صنعه، ولم يكن له فتوة، فقال امتناناً على موسى: ﴿ألم نُرَبِّك فينا وليداً﴾[1].

وقال الحسن البصري رحمه الله: فضل الفعال على المقال مكرمة، وفضل المقال على الفعال مبغضة!

ثم أصل الفتوة في كل الأحوال، استواء السر والعلانية في جميع الأفعال والأقوال، مع ترك الافتخار بالأعمال، وحفظ مراعاة الدين، ومتابعة السنن، واتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه.

ثم من موجبات الفتوة، الصدق والوفاء والسخاء، والحياء وحسن الخلق، وكرم النفس، وملاطفة الإخوان، ومجانبة القبائح، واستماعها[2] في حق الأصدقاء، والوفاء بالعهد، والتباعد[3] عن الحقد والغش، والموالاة في الله والمعاداة[4] فيه، والتوسعة على الإخوان بالمال والجاه، وترك الامتنان عليهم بذلك، ومحبة الأخيار ومصاحبتهم، وأشباه ذلك. ونحن نسأل الله أن يمن علينا بالأعمال الفاخرة، ويوفقنا لما نسعد به في الدين والدنيا والآخرة، ولا يؤاخذنا بتضييع أوقاتنا، ولا يحرمنا مرضاته إنه قريب مجيب.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨.

(٢) في الأصل: استماعه.

(٣) في الأصل: التباعد من.

(٤) في الأصل: الموالات.. والمعادات.

باب السخاء

وأما السخاء، فقد ذكره الله في كتابه العزيز في قوله: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[١]. وسئل أبو حفص النيسابوري[٢] عن ذلك، فقال: أن تقدم حظوظ الإخوان على حظك، في أمر آخرتك ودنياك.

وقد مدح الله عز وجل السخاء، في قوله: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه..**﴾[٣] الآية. وذم من بخل: ﴿**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة ثابتة، فلا يلج الجنة إلا سخي، والبخل شجرة في النار، فلا يدخل النار إلا كل بخيل»[٥].

وقال أبو هريرة، قال رسول الله ﷺ: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل»[٦]. وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة منان»[٧].

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩ .

(٢) هو أبو حفص عمرو بن سلمة الحداد النيسابوري، من رجال الطبقة الأولى. وكان أبو حفص من أئمة التصوف في عصره، تتلمذ على يديه شاه بن شجاع الكرماني، وأبو عثمان سعيد بن إسماعيل الصوفي.. وتوفي رحمه الله سنة ٢٧٠ هجرية.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٠.

(٥) رواه الترمذي وابن حنبل بلفظ آخر، والترمذي في صحيحه (كتاب البر ٤٠).

(٦) رواه الترمذي في جامعه والعقيلي في الضعفاء، وقال الترمذي: إنه حديث غريب.

(٧) الحديث: «لا يدخل الجنة نمام»، بلفظ (نما) أو قتات.. متفق عليه.

روت عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «الجنة دار الأسخياء»[1].

قال الله تعالى: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾[2].
فقال: بماذا أكرم أضيافه؟ فقال: خدمهم بنفسه!

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن منزل[3] ضيفه»[4]. وقالت عائشة: لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم، ما دامت مائدته منصوبة.

قال أبو العباس الزوزني: بلغني أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: أتدري لما اتخذتك خليلي؟ قال: لا يا رب. قال: لأني اطلعت على سرك، فكان العطاء منك، أحب عندك من الأخذ.

وقال أبو عبد الله بن الحارث: من لم يكرم ضيفه، فليس من محمد ولا من إبراهيم صلوات الله عليهما أجمعين.

وقال حاتم الطائي[5]:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... فيخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب

... قيل: عَلامات السخاء ثلاثة: البذل مع الحاجة، وخوف المكافآت واستقلال العطاء، والحمد على النفس إغشاماً لإدخال السرور على قلوب الناس.

---

(١) رواه ابن عدي والقضاعي عن أنس مرفوعاً، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وقال الذهبي: منكر، وعده ابن الجوزي من الموضوعات.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٢٤.

(٣) غير مقروءة في الأصل.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح والدارمي في السنن وأحمد بن حنبل في مسنده ٣١/٤، ٥/ ٤١٢.

(٥) من أعلام العرب، ضرب به المثل في الكرم لسخائه الشديد، ومن أمثلة كرمه: أنه ذبح حصانه . وكان عزيزاً عليه . حتى يطعم ضيفاً أتاه، ولم يكن لديه طعام ليقدمه له.

وقيل: السخاء بذل أجل ما عندك لأدنى الخلق!

وسئل بعضهم عن السخاء، فقال: المبادرة إلى العطية قبل السؤال.

... وسئل عمرو بن عبيد عن السخاء، فقال: أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعاً.. وقال عمر بن عبد العزيز: السخاء يطوي العيوب.. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: أحسنوا إلى جميع الناس، فإن الإنسان ينبغي أن يكون محسناً إلى من أساء إليه ليكون من المحسنين.. وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: السخاء ترك الامتنان عند العطاء.

وقال أحمد بن أبي الحواري[1]: إتمام الإحسان خير من ابتدائه، لأن الابتداء هوى[2]، والإتمام صبر.. والصبر أشد من الهوى.

وقال أبو عثمان الحيري: من شرط المعروف، تعجيله وتصغيره وستره! وكان الربيع بن خيثم[3] يتصدق بالرغيف، ويقول: إني لأستحي أن تكون صدقتي كسراً كسراً.

سئل أبو عبد الله: متى يحصِّل الإنسان وصف السخاء؟ فقال: إذا أخرج[4] من ماله من غير مَنّ، وأعطى للقريب والبعيد.. قال:

فأنفق فإن الفقر في طلب الغنى[5] هو الفقر ما الذي أنت منه تجزع؟

وقيل لأبي سعيد الخراز: ما غاية السخاء؟ فقال: بذل النفس والمال والروح للخلق، على غاية الحياء.. قال في المعنى:

---

(١) هو أبو الحسن أحمد بن ميمون أبي الحواري: من أهل دمشق، اعتبره الكلاباذي أوائل الصوفية، ووضعه السلمي ضمن رجال الطبقة الأولى.. نشأ في أسرة زاهدة ورعة، وصحب الداراني وسفيان بن عيينة، وكان الجنيد يدعوه: ريحانة الشام. وتوفي ابن أبي الحواري سنة ٢٣٠ هجرية.

(٢) في الأصل: صبر،

(٣) هو أول زاهد في الكوفة، كان عامل علي بن أبي طالب على الري وقزوين، لكنه اعتزل جيش علي عند قتاله مع معاوية، وفضل الابتعاد عن حرب المسلمين في موقعة الجمل وذهب إلى فارس كي يشارك في الفتوح.

(٤) في الأصل: خرج.

(٥) في الأصل: الغنا.

قد مات قوم ولا ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إن الله يحب السخاء، ولو بشق تمرة.

حكي أن أعرابياً أتى[1] عمرو بن العاص، فسأله شيئاً، فقال للغلام: أعطه خمسمائة، فذهب الغلام، ثم رجع فقال: أخمسمائة دينار أم خمسمائة درهم؟ فقال: إذا رجعت، فاجعلها خمسمائة دينار! قال: فقبضها الأعرابي، ثم جلس فغدا يبكي، فقال له عمرو: ما لك تبكي، لعلك استقللت العطاء؟ فقال: لا، ولكن أبكي كيف تأكل الأرض مثلك.

وقال مطرف بن عبد الله لأصحابه: إذا كانت لكم إليّ حاجة، فاكتبوها في رقعة وارفعوها إليّ، ولا تسألوني مواجهة، فإني أكره[2] ذل السؤال في وجوهكم!

وقيل: جاء رجل إلى عبد الله بن المبارك، فقال: عليّ سبعمائة درهم من الدين، فكتب له الوكيل، فجرى القلم بسبعمائة دينار، فدفع له ذلك الدين. فقال: أردت شيئاً، فما أراد الله خلافه.

وقال طلحة بن عبد الله: إنا لنجود[3] بأموالنا، فما نجد بخلاً، ولكن نتصبر.. وقال: لو أن الدنيا كلها لقمة واحدة في فم طفل (لتركها)[4] له..

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: «أشد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ في مالك، وذكر الله تعالى في كل حال..» وروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال: قال النبي ﷺ: «الصبر والحلم والسخاء، من أخلاق الأنبياء، فمن أكرمه الله بكرامة الأنبياء، أدخل الجنة مع الأنبياء بغير حساب»[5].

---

(١) في الأصل: أتا.

(٢) مطموسة في الأصل.

(٣) في الأصل: لنجد.

(٤) غير مقروءة في الأصل.

(٥) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين.

وقال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس بالبذل، أشد من السخاء بما في أيدي الناس.

وحكي أن رجلاً اتخذ ضيافة، وأسرج فيها سراجاً في مجلس كل واحد! فقيل له: لقد أسرفت، فقال: أبصر أي سراج رأيته لغير الله فأطفئه! فما قدر أن يطفىء منها سراجاً واحداً..

ولبعضهم:

يتأنس الضيف في أبياتنا فرحاً ... فليس يعرف فينا أينا الضيف
الضيف أملك منا عند رؤيته ... منا بأنفسنا فالمن للضيف

باب الشفقة

سئل الجنيد عن الشفقة على الخلق، فقال: أن تعطهم من نفسك ما يطلبون، ولا تحملهم ما لا يطيقون.. وسئل رويم: كيف شفقتك على إخوانك؟ فقال: ما سرني من الدنيا إلا ما سرهم، ولا ساءني من الدنيا إلا ما ساءهم.. وقيل: سئل بعض الفتيان، كيف محبتك لإخوانك وشفقتك عليهم؟ فقال: أحسد عيني إذا أنظرهم[1]، وأحسد سمعي إذا سمع كلامهم، كيف لا تكون جوارحي كلها سمعاً يسمع كلامهم! كما قال بعضهم:

غنت فلم تبق في جارحة   إلا تمنيت أنها أذن

وقال ذو النون: إني لأحسد التراب الذي يطأ[2] عليه إخواني كيف لا يكون خدي عوضاً عنه يطؤون عليه بدلاً منه! وقال في معناه:

وأشفق أن يمشي على الأرض صغيري   فيا ليت خدي ما حييت وطاؤه

وسئل بعضهم، كيف شفقتك على إخوانك؟ فقال: إن سقط الذباب على خد أحدهم، أجد له ألماً في قلبي[3].

وقال بعضهم: الأخوة في الدين، التزام الشفقة والنصيحة للإخوان ظاهراً وباطناً.

---

(١) في الأصل: انظر.

(٢) في الأصل: يطون.

(٣) اهتم الصوفية بعلاقة المحبة للإخوان، ونصحوا بها مريدهم، كما نرى في هذا الباب الخاص بالشفقة على الإخوان في الدين.. ولكنا نرى مع ذلك شيئاً من المبالغة في هذه العبارة الأخيرة!

وقال عبد الله بن المبارك: لا تكن خصماً لنفسك على الخلق، ولكن كن خصماً للحق على نفسك.. وكان يقول: لا سرور في الدنيا يعادل رؤية الإخوان، ولا غم من غمها يعادل مفارقتهم[1].

وقال أبو بكر الكتاني: إن[2] حفظ قلب المؤمن، أحب إلي من أن أحج حجة مبرورة.

---

(١) غير واضحة في الأصل.

(٢) في الأصل: لأن.

باب حسن الخلق والتواضع

قال الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[١]. فمدح الله عز وجلّ نبيه ﷺ، بحسن الخلق..

وسئل بعضهم عن[٢] هذه الآية الشريفة، فقال: «الحلق مع الخلق، والسر مع الحق»[٣]. روى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن..»[٤]. وقال أنس بن مالك: سئل رسول الله ﷺ، أي الأعمال أفضل؟ قال: «حسن الخلق»[٥]. وقال: «إن الرجل لينال بحسن الخلق أعلى[٦] درجة في الجنة، وهو غير عابد، وإن الرجل لينال بسوء الحلق أسفل درك في النار، وهو عابد..»[٧]. وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني محلساً يوم القيامة»، قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «أحسنكم أخلاقاً[٨] الموطئون للناس أكنافاً، الذين يألفون حسن الخلق، جمال في الدنيا وكمال في الآخرة، وسوء الخلق يفسد العمل».

---

(١) سورة القلم. الآية ٤.

(٢) مطموسة في الأصل.

(٣) في الأصل: الخلق.

(٤) رواه ابن حنبل في المسند والترمذي في صحيحه (كتاب البر) بلفظ: «أفضل شيء في الميزان، الحلق الحسن».

(٥) أخرجه ابن حنبل في مسنده، الجزء السادس ٤٤٣، ٤٤٦.

(٦) في الأصل: أعلا.

(٧) انظر: البخاري في الأدب، وابن حنبل في البر، وسنن أبي داود في الرقاق: وموطأ مالك (حسن الخلق).

(٨) أخرجه البخاري في الصحيح (فضائل الصحابة ٣٧ . المناقب ٢٣) والترمذي في كتاب البر، وأحمد بن حنبل في المسند ١٩٣/٤، ١٩٤.

وسئل بعضهم عن حسن الخلق، فقال: إيثار المحبوب، والبشاشة في جميع الأسباب.

وقال حارث المحاسبي: حسن الخلق هو احتمال الأذى، وقلة الغضب، وبشر الوجه، وطيب الكلام.. وقال أبو يزيد البسطامي: أقرب الخلق إلى الله، أوسعهم لخلقه خلقاً، فتواضعوا.

وقال ﷺ: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»[1].

وقال أبو العباس بن عطاء يوماً لأصحابه: بم يرتفع الإنسان؟ فقيل: بترك المن، وبذل النفس، وقال آخرون: بالمحاسبة والموازنة! فقال ابن عطاء: ما ارتفع من ارتفع، إلا بحسن الخلق، وما باله كاملاً إلا النبي ﷺ.

وقيل: أقرب الخلق من الله، السالكون آثاره، والمقتفون أخباره.

وقال سهل بن عبد الله: إن الله ينظر في القلوب، والقلوب بيده، فإذا كان القلب متواضعاً، خصه الله تعالى بما يشاء.

وقيل: رأس مال العارف، التودد إلى الخلق، كما روي عن النبي ﷺ: أمرت بمداراة الناس، كما أمرت بأداء الفرائض[2].

وقال بعضهم: أصل المروءة، التوسعة للخليقة، وأصل سوء الخلق، من ضيق القلب، قال الله تعالى: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾[3]. فمن كان على نور من الله، كان قلبه واسعاً وخلقه حسناً، ثم قال: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾[4]. فمن كان قلبه قاسياً، كان قلبه ضيقاً وخلقه سيئاً.

---

(١) رواه أبو يعلى وغيره عن حديث أبي هريرة به مرفوعاً، انظر: الموطأ (باب الجهاد ٣٥) ومسند ابن حنبل ٣/٣٦٥.

(٢) المراد بمداراة الناس العفو عن أخطائهم والترفق بهم، وفي حين يدعو الإسلام لمداراة الناس إلا أنه يرفض المداهنة! (انظر: الفرق بين المداراة والمداهنة في كتاب الفروق للحكيم الترمذي . مخطوط).

(٣) سورة الزمر. الآية ٢٢.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢٢.

... وعلامة الخلق السيىء، أن لا يحتمل[1] شيئاً من الناس، لسوء خلقه.. وسئل بعض الصوفية عن حسن الخلق، فقال: كف الأذى عن الناس، واحتمال الأذى منهم.

وحكي عن[2] الأحنف بن قيس، أنه كان له غلام أسود سيىء الصورة والخلق، وكان يحتمله[3] ويصبر على سوء خلقه! فقيل له في ذلك، فقال: إنما أمسكه لأتعلم فيه الحلم!

وقال أبو علي الروذباري: لا يرفع أحد إلا بالتواضع، ولا يتضع أحد إلا بالكبرياء[4].

وقال أبو الحسن البوشنجي[5]: من أذل نفسه، أعزه الله، ومن أعزها، أذله الله في أعين العباد.

وقال الأحنف بن قيس: إن أدوا الداء، اللسان البذيء والخلق الرضي.. وقال الرصدي: شرط الخدام[6]، التواضع والاستسلام.

... سئل عبد الله بن المبارك عن تواضع الصوفي، فقال: تكبره على الأغنياء!

وقال سهل بن عبد الله: ألزموا أنفسكم التواضع، تسلموا من الدعوى، من تواضع لله، لم يتكبر على خلق الله، قال الله تعالى: ﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾[7]. والتواضع سلم الشرف، ومن أخلاق الصوفية، الحلم والتواضع، والسخاء والكرم، والإعراض عن الدنيا والزهد فيها وترك مدحها وذمها، والتأدب بالمشايخ، وتأديب الأصحاب، والشفقة على عامة المسلمين ورؤية فضلهم ونقصه، وتعظيم من مات منهم، والنصيحة للمسلمين، وبذل ماله ونفسه..

---

(١) في الأصل: لا يحمل

(٢) في الأصل: من.

(٣) في الأصل. يحمله.

(٤) في الأصل: بالكبرا.

(٥) في الأصل: البوسحي.. وأبو الحسن البوشنجي من كبار صوفية العراق، توفي ٣٤٨ هجرية «انظر: ترجمته في طبقات الصوفية للسلمي».

(٦) يقصد بالخدام، العبيد القائمين على طاعة المولى عز وجل.

(٧) سورة الشعراء الآية ٢١٥.. وفي الأصل المخطوط: واخفض جناحك للمؤمنين.

باب مكارم الأخلاق

قال الله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[1] لما نزلت هذه الآية، قال جبريل: يا محمد، أتيتك بمكارم الأخلاق! قال: وما هي[2]؟ قال: أن تعفو عن من ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعرض عمن جهل عليك، وتحن لمن أساء إليك، فقال بذلك رسول الله ﷺ، لكي يقتدى به في أمته من بعده. قال محمد بن حرب: جمع الله تعالى المروءة[3]... في هذه الآية.

وروي عنه ﷺ، لما شج رأسه وكسرت رباعيته، قال: «رب اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون..»[4]. وروي عنه ﷺ، أنه لما دخل المدينة، قال: يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام[5].

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا أحببت أن[6] تدعى من أهل المكارم، فاجتنب المحارم.

حكي أن أنس بن مالك رضي الله عنه مرض، فعاده إخوانه، فقال

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.. وفي الأصل المخطوط: خذ العفو وأمر بالمعروف!

(٢) في الأصل: وما هو.

(٣) كلمة ساقطة في الأصل.

(٤) من حديث السي ﷺ لما اشتد أدى قومه له

(٥) انظر: الإمام النووي، الأحاديث القدسية صفحة ٦٥.

(٦) في الأصل: أنك!

لجاريته: قدمي إلى إخواننا أشياء، ولو كسراً، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مكارم الأخلاق من أعمال الجنة»[1].

وسئل أبو القاسم الحايم[2] عن الكرم، فقال: قول لطيف يتبعه فقر شريف.. وقيل للإسكندر: ما سرك في ملكك؟ فقال: قدوتي أن أكافىء من أحسن إلي بأكثر من إحسانه؟!

وقال الجنيد: الكريم لا يحوجك إلى وسيلة.. قيل لأبي عمرو المكي[3]: ما الكرم؟ فقال: التغافل عن زلل الإخوان.. وقال أبو عثمان: الكريم يعتذر، واللئيم لا يزال يفتخر!

وسئل عبد الله بن خفيف[4]: متى يصح للإنسان الكرم؟ فقال: إذا احتمل أذى الخلق، ولم يكافئهم بسوء.

وقال أبو حفص النيسابوري: الكرم بيع[5] الدنيا لمن احتاج إليها،

---

(١) انظر الأحاديث الواردة في مكارم الأخلاق، في صحيح البخاري (مناقب الأنصار ٣٣، الأدب ٣٩) وفي صحيح مسلم: (فضائل الصحابة ١٣٣).

(٢) هكذا ورد الاسم في المخطوطة، ولم نجد ترجمة له في كتاب الطبقات.

(٣) هو أبو عبد الله عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص المكي، من كبار الصوفية. كان المكي عالماً بالحديث النبوي، راوياً له، كما كان عالماً بعلم الأصول.. صحب الجنيد وأبا سعيد الخرار وغيرهما من المشايخ القدماء. ومن أقواله: «كل ما توهمه عقلك أو رسح في مجاري فكرك أو خطر في معارضات قلبك، من حسن أو بهاء أو أنس أو جمال أو خيال، فهو سبحانه وتعالى بعيد عن ذلك».. «العلم قائد والخوف سائق والنفس حرون بين ذلك حموع خداعة مراوغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسقها بتهديد الخوف، تنل ما تريد ولا تسيطر عليك». وتوفي ابن عثمان المكي في بغداد سنة ٢٩١ هجرية.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف بن اسفكشاذ الضبي: شيخ شيراز. كانت أمه نيسابورية، وكان شيخ المشايخ في وقته، صحب رويم البغدادي، وطاهر المقدسي، وأبا العباس بن عطاء، وعثمان الدمشقي.. وكان ابن خفيف عالماً بعلوم الظاهر والباطن، وإسناد الحديث النبوي. ومن عباراته الذوقية: ليس أضر على المريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات. ودخل عليه رجل من الصوفية فقال له: بي وسوسة من الشيطان! فقال ابن خفيف: عهدي بالصوفية أنهم يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم. وتوفي ابن خفيف سنة ٣٧١ هجرية.

(٥) الكلمة غير مقروءة في الأصل.

والإقبال على الله لاحتياجك إليه. وقال ذو النون المصري: ليس بكريم من أذل سائله، وليس بكريم من أعطى على المسألة، وليس بكريم من أحوجك إلى شفيع.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: الكريم تتبين عند الفاقة طعمته، وعند الإنفاق نعمته.. وقال سفيان الثوري: ليس من أخلاق الكرام، التواني عن قضاء حوائج الإخوان، وأنشد لبعضهم يقول:

كم قتيل لشهوة أف منها   لم ينل منها إلا خلاف الجميل

شهوات الإنسان تكسبه الذل   وتلقيه في البلاء الطويل

وقال بشر بن الحارث: خصلتان تقسيان القلب: كثرة الأكل والنوم.. وقال سري السقطي[1]: ما شبع عبد شبعة، إلا فارق من عقله شيئاً لا يعود أبداً!

وقال الجنيد: من فتح على نفسه باب سيئة، فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان من حيث لا يشعر.. وقال الفضيل بن عياض: من رضي من الله بما قسم له، فأرض الله واسعة، ومن لم يرض، لم يبارك له فيه، ولم تسعه الأرض.

وروى أبو هريرة، أن النبي ﷺ قال: «لئن يحزم أحدكم حزمة من

---

(١) هو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي، خال أبو القاسم الجنيد، وإمام البغداديين وشيخهم في وقته. وضعه السلمي ضمن رجال الطبقة الأولى، قائلاً بأنه ينتسب إليه أكثر رجال الطبقة الثانية.. وتوفي السقطي سنة ٢٥١ هجرية، وترجم له غالبية المؤرخين.. ويروى عنه: أنه كان جالساً في مجلس الجنيد، الذي أخذ يتحدث عن «المحبة» مورداً أقوال الصوفية في ذلك.. ويبدو أن السري السقطي لم يقتنع بما قاله الجنيد، فالتفت إليه وأمره أن يرفع كم الرداء الذي يرتديه! وفعل الجنيد ما أمره به، فرأى ذراع خاله ناحلاً مهزولاً يكاد يلتصق الجلد فيه بالعظام. وبينما الجنيد مرتاعاً لما رآه، قال السقطي: يا بني، المحبة أدناها ما رأيت.. ثم أنشد:

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني   ألست أرى العظام منك كواسيا

وما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا   وتحرس حتى لا تجيب المناديا

وتهزل حتى لا يبقى لك الهوى   سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

وما زال كذلك حتى أبكى الحاضرين..

الحطب، فيحملها على ظهره، فيبيعها، خير له من أن يسأل رجلاً يعطيه أو يمنعه»[1]..

وأنشدوا في المعنى:

لنقل الصخر من قلل الجبال أحب إلي من منن الرجال
يقول الناس كسب فيه عار فقلت العار في ذل السؤال

قيل: من اكتفى عن السؤال، فقد أعطي خير النوال.. هان عليك من احتاج إليك! وقال بعضهم: إذا أردت أن تعيش حراً، فلا تلزم مؤنة نفسك غيرها. وقيل: استغنِ عن من شئت تكن نظيره، واسأل من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره!

وقال بعضهم:

ومن يرغب إلى الناس يكن للناس مملوكا إذا ما أنت خففت عن الناس حبوكا
وإن ثقلت كرهوكا ولاموكا وسبوكا!!

روى عمر بن الحصين أن النبي ﷺ قال: «من انقطع إلى الله، كفاه مؤونة[2] رزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله إليها..»[3]. وقال ﷺ: «لو يعلم الناس ما في المنانة، ما سأل أحد شيئاً..»[4]. وروي عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «من أصبح وهمه على الدنيا، فليس من الله»[5].

وقال الجنيد: من كان مشغولاً بالله عن نفسه، فهو الذي يبدأ بالعطاء قبل السؤال.. وقيل: الطيب من الرزق، ما يتناوله الإنسان في وقت الاضطرار مقدار استغناء المهجة، لأداء الفرائض.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة، والترمذي في الصحيح (كتاب الزكاة أيضاً)، ومالك في الموطأ.
(٢) في الأصل: مونة.
(٣) أحرجه ابن ماجة بلفظ قريب في سننه (كتاب التحارات ٣، المقدمة ٢٣، الزهد ٣).
(٤) روي في الصحيحين بلفظ آخر.
(٥) أخرجه الترمذي في الصحيح، وابن ماحة في السنن (كتاب الزهد).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿مما آتاه الله﴾[1] زهده في الدنيا، ورغبته في الآخرة. سئل أبو سعيد[2] عن الفتوة، فقال: اليأس من الخلق، وترك السؤال بالتفويض، وكتمان الفقر، وإظهار الغنى والتعفف.

وقال إبراهيم بن شيبان: كان أبو عبد الله المغربي لا يأكل إلا من بقول الأرض مدة ثلاثين سنة، ولا يطلب الأسباب إلا عند وجود الفاقات، فإن النبي ﷺ قال: «جوعوا أنفسكم تقوون على عدوكم وصلاتكم، ومن قنع بالقليل استراح من الهم والتعب، وما نقص من القناعة زاد في الطمع».

وقال ذو النون المصري: الحيلة فيما كفيته فضول، والتعريض فيما لا يعنيك جهل! وروي في بعض الأخبار: من طعن في الاكتساب، طعن في السنة، ومن طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان[3]..

وسئل الجنيد عن (المكاسب) فقال: الماء والتقاط النوى!

وروي في الخبر: أطيب ما أكله العبد، من كسب يده.

وروى عمار، قال: أجر علي كرم الله وجهه، نفسه إلى[4] يهودي، على أن ينزح[5] له كل دلو بتمرة، فلما جمع ملء كفه، ذهب به إلى فاطمة فقال لها: أطعمي أضيافك! فما بال الرجل لا يصير[6] إلا باكتساب أفضل من المسألة.. وقد روي في الخبر: أنه ما من رجل سأل رجلاً لحاجة، فقضاها أو لم يقضها، إلا طار ماء وجهه أربعين يوماً.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٧.

(٢) هو أبو سعيد أحمد بن محمد بن إياد بن درهم بن الأعرابي العنزي بصري الأصل، سكن بمكة، وكان شيخ الحرة في وقته. ترك أبو سعيد بن الأعرابي للصوفية مؤلفات كثيرة، وتحدث عن معظم الموضوعات الصوفية، وروى الحديث وكان ثقة.. وتوفي بمكة سنة ٣٤١ هجرية.

(٣) تنسب هذه العبارة للجنيد، وقد مرت علينا في باب التوكل، حيث نسبها المؤلف للجنيد!

(٤) في الأصل: من.

(٥) في الأصل: ينزع.

(٦) يصعب قراءتها في الأصل.

حكي عن إبراهيم بن شيبان قال: لقيت ستة آلاف شيخ من هذه الطائفة[1]، كلهم قالوا: المسألة حرام والتعريض شبهة.

وقال عبد السلام بن سلامة: شكوت إلى إبراهيم[2] فزعي من الفقر، مع قلة إنصاف الإخوان، فقال لي: يا ابن سلامة، عليك بالقنوع فإن من قنع استغنى، وإياك أن تمدن عينيك إلى ما في أيدي الناس، فقد ذهب الذين كانوا يتواصون في الله. انتهى.

... وحكم الفقير[3] أن يجلس تحت الرضى، ينتظر المورود من السماء، فعيشه هني، وباله رضي، ويعلم أن الكسب والحركة لا تزيد في رزق العبد، وتركهما لا ينقص منه شيئاً، لأن الأرزاق بمشيئة المعبود، لا بمشيئة العباد.

---

(١) يقصد بالطائفة الصوفية.

(٢) يقصد إبراهيم بن أدهم.

(٣) يريد بالفقير: الصوفي..

باب الوصايا

قيل: سأل رجل النبي ﷺ، فقال: أوصني! فقال: «لا تغضب»، فقال زدني! قال: «تستحي من الله كما تستحي من صالح جيرانك»[1]. وقال رجل لسلمان الفارسي: أوصني، فقال: لا تخالط الناس..

وحكي عن الجنيد أنه أوصى بعض أصحابه فقال: يا بني، الزم العلم، ولو ورد عليك من الأحوال ما ورد، لا يكون[2] مصحوبك إلا العلم، لأن الله تعالى يقول: ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا به**﴾[3].

وقال أبو عبيدة بن خفيف: لما فارقت رويم بن عبد الله، قلت له: أوصني! فقال: يا بني ما هو إلا بذل الروح والنفس. يعني التصوف. فإن قدرت على ذلك، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية[4].

قيل لحاتم الأصم: أوصني! فقال: اجعل روحك عندك عارية[5]، ونفسك رهينة، والموت نازل بك لا محالة.

... قيل: أوصى محمد بن علي الباقر[6] بعض أصحابه، فقال: لا تدع

---

(١) متفق عليه.

(٢) في الأصل: أن يكون.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٤) في هذه الوصية، يحذر رويم البغدادي من الخوض في البدع والضلالات التي كانت دائماً تشوه صورة التصوف الصحيح، ويحذر أيضاً من أخذ التصوف على ظاهره، كما يفعل ذلك الكثير من أصحاب الفرق الصوفية اليوم، وذلك أن التصوف بذل للنفس والروح، وليس ترهات وتهاويل جهل وحلقات رقص وإنشاد.

(٥) أي أمانة ائتمنه الله تعالى عليها.

(٦) هو الإمام الخامس عند الشيعة الإمامية، كني بالباقر لأنه «بقر العلم بقراً» كما تنبأ الرسول ﷺ =

النفس في هواها، فإن هواها أذاها.. وقال محمد بن سليمان: لقيت غيلان المجنون في بعض الخراب بالكوفة، فقلت له: متى يسقط العبد من خطرات الغفلة؟ فقال: إذا كان بما أمر[1] به فاعلاً، وعما نهى عنه غافلاً، وبمحاسبة نفسه عاقلاً! فقلت متى يصل العبد إلى هذه المنزلة؟ قال: إذا قام بأمره، وأخلص سريرته، ونجا من زلته! فقلت: زدني موعظة أتزود بها منك؟ فقال: كن من الله عز وجل على حذر ومن دنياك على خطر، ومن الموت على وجل، ولقدوم الآخرة على عجل.

وحكي أن القاسم بن عثمان الحريري[2]، قال لأصحابه: أوصيكم بخمسة: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم فلا تفرحوا، وإن ذممتم فلا تجزعوا، وإن كذبتم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا.

قال الحسن الحداد، قلت لمحمد بن عبد الله في وقت مفارقتي إياه: أوصني! فقال: ارض من الدنيا برغيفين، ومن صحبة الناس بفقيرين، ولا يفوتك هذين!

وقال يونس بن عبد الله: سمعت ثلاث كلمات من ثلاثة رجال، لا أبالي بأن أسمع بعدهم إلا القرآن! سمعت من بورق العجلي يقول: ما تكلمت بشيء قط في غضب، ندمت عليه في رضا، وسمعت من محمد بن سيرين[3]: ما حسدت أحداً على شيء قط، لأنه لا حسد إلا في دين أو في دنيا، فأما رجل أعطاه الله خيراً، فما بالي أحسده عليه، وأما الدنيا، فلا ينبغي

= لأحد ذريته، فكان محمد بن علي زين العابدين هو هذا الرجل.. وتوفي الإمام محمد الباقر سنة ١١٤ هجرية.

(١) في الأصل: ما مر.

(٢) هو القاسم بن عثمان، الملقب بالجوعي. كان أول من وضع أسس الزهد الجوعي في الشام، وكان يقول: الزهد في الدنيا، هو الزهد في الجوف! ويشرح رأيه بأنه «بقدر ما تملك من بطنك، بقدر ما تملك من الزهد».. وتوفي القاسم بن عثمان سنة ٢٠٠ هجرية.

(٣) هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري الأنصاري. ولد سنة ٣٣ واستقر بالبصرة وكان تابعياً مشهوراً، ويعد ابن سيرين حجة في (تفسير الأحلام) وله مؤلفات في ذلك، كما يعد من أوائل الزهاد.

أن أحسد أحداً على دنيا! وسمعت حسان بن أبي شيبان يقول: ليس شيئاً أهون علي من الورع! قيل: وكيف ذلك؟ قال: إذا رابك شيء[1]، فدعه..

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم فقال له: أوصني! قال: أوصيك بخمس كلمات: إذا اشتغل الناس بالدنيا، فاشتغل أنت بالآخرة، وإذا اشتغل الناس بتزيين الظاهر، فاشتغل أنت بتزيين الباطن، وإذا اشتغل الناس بعمارة القصور، فاشتغل أنت بعمارة القبور، وإذا اشتغل الناس بعيوب الناس، فاشتغل أنت بعيوب نفسك، وإذا اشتغل الناس بخدمة المخلوقين، فاشتغل أنت بخدمة الخالق!

وقال الجراح بن عبد الله: ما للطريق[2] إلى الله أفضل من طلب العلم، فإني عدلت مرة عن الطريق . يعني طريق العلم . فتهت أربعين صباحاً في الظلمات!.

وكان يحكي جعفر المرتعش: سمعت أبا الحسن يوصي بعض أصحابه ويقول: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن الشريعة، فلا تقربنه، ومن رأيته يحب الرياسة والتعظيم[3]، فلا تقربنه، ومن رأيته يسكن إلى أبناء جنسه، فلا تقربنه! ومن رأيته يشكو حاله إلى أبناء[4] الدنيا، فلا ترافقه، ومن رأيته مستغنياً بعلمه، فلا تأمن جهله! ومن رأيته مدعياً حالة باطنة ليس له عليها دليل ظاهر، فاتهمه في ذلك، ومن رأيته راضياً عن نفسه، ساكناً إلى عمله، فافهم أنه محروم في الدارين، ومن رأيته من المريدين يميل إلى القصائد والرفاهية، فلا توافقه على عمله، ومن تراه عند السماع[5] من الفقراء

(١) في الأصل: شيعاً.

(٢) في الأصل: ما الطريق.

(٣) أي يحب سلوك مسلك الصوفية، كي يحترمه الناس ويعظموه.

(٤) كتبت هذه الكلمة بخط دقيق بين السطرين!

(٥) السماع مجلس يجتمع فيه الصوفية للذكر والإنشاد، وهو عندهم استجمام من تعب الوقت وترويح عن النفس. ويشترط الصوفية في حضور هذا المجلس الصوفي، أن يكون المريد من أهل التقوى وليس من أهل الهوى، حتى لا يلهو وتتغلب عليه شهوته ويضيع عليه=

غير حاضر[1]، فاعلم أنه منع بركات ذلك بتشويش سره وتدبير همه! ومن رأيته مطمئناً إلى أصحابه وأصدقائه، مذعناً إليهم، معتمداً عليهم، فاعلم أنه مخطىء..

أوصى بعض المشايخ زائره، فقال: لا تحب الدنيا، وعد الفقر من الله نعمة، والمنع عطاء، والوحدة أنساً، والذل عزاً، والطاعة حرفة[2] والحياة موتاً، والتوكل معاشاً، والله لكل شيء عدة.

حكى أبو موسى الديبلي[3] قال: أتى أبا يزيد البسطامي رجل، فقال: أوصني! فقال: انظر إلى السماء، فنظر الرجل إلى السماء، فقال: من خلقها؟! فقال: الله خلقها! قال أبو يزيد: فإن خالقها مطلع عليك، ومعك حيثما كنت، فاحذره..

وقال أبو سليمان الداراني: ما أشغلك عن الله من أهل وولد ومال، فهو عليك شؤم.. وقال: لا تميلوا إلى غير الله بعد معرفته، فإنه غيور.. وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني اصحب الصالحين[4] كي تعد منهم، وجانب الأرذلين كي لا تعد منهم.

وأوصى سهل بن عبد الله رجلاً، فقال: وقتك أعز الأشياء فاحفظه، واشغله بأعز الأشياء!.

= طريقه.. يقول أبو عبد الله الساجي: السماع ما أثار فكرة، واكتسب عبرة، وما سوى ذلك فتنة.

ويقول الهجويري في «كشف المحجوب» إن فريقاً من العلماء أجمع على إباحة السماع بالأدوات الموسيقية إذا لم يكن في ذلك سبيل إلى الارتداد والسير بالعقل في طريق الضلال..

(١) أي غائباً عن شعوره، غير منتبه لما يفعله من شدة الهياج والوجد، كما نرى اليوم في حلقات الذكر.

(٢) في الأصل: حرقة.

(٣) هو أبو موسى عبد الرحيم بن يحيى الأسود، الملقب بالديبلي، نسبة إلى ديبل بضم الباء. وهي قصبة بلاد الهند.

(٤) في الأصل: الصلحين.

وأوصى أبو علي الروذباري[1] بعض أصحابه، فقال: لا تفارق هذه الخلال الأربع: صدق القول، وصدق العمل، وصدق المودة، وحفظ الأمانة.

وقال الشيرواني: قلت لإبراهيم الخواص، أوصني! قال: عليك بملازمة الفقراء، فإن الخير فيهم.. وقال أبو حفص النيسابوري، يوصي بعض إخوانه: احفظ باباً واحداً، يفتح لك الأبواب، والزم سيداً واحداً، تخضع لك الرقاب!.

وقال أبو الربيع العابد: قلت لداود الطائي[2]، أوصني فقال: صم عن الدنيا، واجعل فطرك الموت، وفر من الدنيا ومن أبنائها، كما تفر من الأسد!

وقال إبراهيم بن شيبان: أوصى إبراهيم بن أدهم بثلاثة، فقال أقللوا من معرفة الناس، ولا تتقربوا إلى من لا تعرفون، وأفكروا فيمن تعرفون.

---

(١) هو أبو علي أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار مهرذادار بن فرغدد بن كسرى، من أهل بغداد، سكن مصر وصار شيخها. وكان الروذباري عالماً فقيهاً عارفاً بعلم التصوف حافظاً الحديث النبوي، اعتبره الكلاباذي ضمن من نشروا علوم الصوفية كتباً ورسائل.. وقال عنه القشيري في رسالته: هو أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة، ويذكر أنه سئل عن التصوف فقال: «هذا مذهب كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل» وقيل له: إن فلاناً يزعم أنه وصل فلم تعد تؤثر فيه الأحوال والحلال والحرام! فقال: نعم قد وصل، ولكن إلى سقر!! وتوفي الروذباري سنة ٣٢٢ هجرية.

(٢) هو الزاهد الصوفي، داود الطائي الكوفي، أخذ علمه من الإمام أبي حنيفة، فلما أتم تعلمه قال له أبو حنيفة: بقي العمل به..! وعاش داود الطائي حياة الزهد والتقشف. وسلك سبيل النساك فلم يتزوج، معللاً ذلك بقوله: قاسيت شهوتهن سنة عند إدراكي، ثم ذهبت شهوتهن من قلبي! وتوفي داود سنة ١٦٥ هجرية.

باب شرائط التصوف

شرائط التصوف، ما كان عليه المشايخ المتقدمون من الزهد في الدنيا، والاشتغال بالذكر والعبادة، والغنى[1] عن الناس، والقناعة والرضى بالقليل من المطعوم والمشروب والملبوس، ورعاية الفقراء، وترك الشهوات، والمجاهدة والورع وقلة النوم والكلام، وجمع الهمة، والمراقبة، والوحشة من الخلق، والغربة، ولقاء المشايخ، والأكل عند الحاجة، والكلام عند الضرورة، والنوم على الغلبة، والجلوس في المساجد، ولبس المرقعة والرث[2].. فما كان على ذلك فالكتاب العزيز ناطق به[3] ورسول الله ﷺ شاهد بقبوله.

فينبغي للعاقل في زماننا هذا، أن يعرف شيئاً من أصول الصوفية، وطريقة أهل الصدق منهم، حتى يميز بين المتشبهين بهم، والمتلبسين لباسهم، والمتسمين بسماتهم، ولا يكن كأحدهم.. فإن الصوفية أمان الله في أرضه وأخدان أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه، وهم ممدوحون بلسان النبوة، لما روت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر، فلينظر إلى أشعث أغبر شاحب مشمر، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، علم فشمر ليوم المضمار وغدا السبّاق، والغاية الجنة أو النار»[4].

فهكذا الصوفية، وهكذا أفعالهم، فمن أنكر هذا المذهب، فلقلة معرفته،

---

(١) في الأصل: الغنا.

(٢) راجع معاني اصطلاحات (قلة النوم والأكل، جمع الهمة، الوحشة من الخلق، لبس المرقعة والرث) في الاستدراك.

(٣) الواو ساقطة في الأصل.

(٤) رواه بلفظ آخر: البخاري في الصحيح (كتاب الجهاد ٧٠) مسلم (كتاب البر ١٨، الجنة ٤٨) والترمذي في المناقب ٥٤، ٦٥.

وقلة الاهتداء لحقائقه، لأن الجياد قليل، وقل من يعرفهم، إلا من يكون من جنسهم..

وقال عز وجل: ﴿وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾[1]. الذي يدعي هذا المذهب، ويعطل الجوارح من العبودية والخدمة والطاعة، ويعطل[2] القلب من الذكر والإرادة وجمع الهمة[3] ومعرفة الواردات وإخلاص النية، ولا يؤدي حقه ولا يعرف حقائقه، وهو يدعي ما ليس له، ليقربه ذلك من الناس، ويعلمه حرفة يأكل بها ويأخذ الوقت الطيب، فإذا بدت له الحقائق من الفقر والفاقة والذل والخدمة والمكروهات، وطولب بالمجاهدات، فر وذهب وخسر وافتضح، وصار بترك هذه الأوصاف خارجاً عن دعواه، وهو متصنع، يلبس المرقعات[4] والتصنعات بلا خشية، ولا مراقبة[5]، ولا ورع، ولا مجاهدة[6]، ولا ذكر، ولا معاملة[7]، فإنه إنما يخسر ويسخر من نفسه.. فالتصوف يلعنه والدعاوى تحجبه، والشيطان يقربه، والملائكة تبعده، والله عز وجل يمقته، وأهل تصوف الحقيقة خصماؤه.

فمن لم يكن للعلم مستعملاً، وفي الإرادة مبادراً، وفي الوجد سابقاً، وفي المعرفة محققاً، وادعى التصوف، كان مرتهناً بدعواه، متبعاً لهواه، محجوباً عن معناه..

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ١١.

(٢) في الأصل: تعطيل.

(٣) في الأصل: همة.

(٤) لبس المرقعة، هو علامة على سلوك طريق الصوفية!

(٥) المراقبة لفظ من ألفاظ الصوفية يقصدون به تعلق العبد بالله وملاحظة أوامره ونواهيه، وذلك مستفاد من معنى «الإحسان» الذي هو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

(٦) يقصد مجاهدة «النفس الأمارة بالسوء» حتى ترتقي إلى مرتبة النفس اللوامة ثم النفس الراضية المرضية (راجع: «مراتب النفوس» في إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي).

(٧) المعاملة يقصد بها الصوفية العبادة بمعناها الظاهر والباطن، كما يقصدون بها الصلة بين العبد وربه.. وانظر إلى العنوان الذي اختاره أبو طالب المكي لكتابه: قوت القلوب في معاملة المحبوب.

فاتقِ الله يا أخي. واحفظ الظاهر، وتعلق بالأصل.. وإن كل باطن من العلم لا يشهد له ظاهر منه، فهو ضلالة. وإذا لم يكن للمتصوف سمة يعرف بها، وهدى يقتدي به، وصلاح في طريقه، واقتصاد في سره، وصدق في جميع أحواله.. فإنه[1] لا يصلح له التصوف، إذا لم يكن فيه هذه الأوصاف.

ومن كان عنده التصوف، التمتع بالأكل والشرب، وموافقة[2] العامة في الحركات، ومرافقة النفوس في المحرمات وسماع المكروهات، فإنه عن التصوف بعيد، وكانت[3] دعواه حجاباً لمعناه. فمن لا يشهد بتصوفه، آثار المتقدمين من مشايخ التصوف، كان من المدعين.. جعلنا الله وإياكم من المهتدين بآثار السابقين من العلماء والعارفين، ومن المتصوفة الواجدين..

إنه خير المعتمدين المنعمين.

* * *

وقد تمت هذه المقدمة المباركة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله وحده، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيّدنا محمّد، وعلى آله الطاهرين، وصحابته أجمعين..

ووافق الفراغ من نسخها، عصر يوم الخميس المبارك، سادس شهر رمضان المعظم قدره، سنة اثنتين وثمانين وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) في الأصل: انما.
(٢) في الأصل: المرافقة.
(٣) في الأصل: كان.

أهم مراجع التحقيق ومصادر الترجمة

- ابن الجوزي (أبو الفرج): **صفة الصفوة.**

- ابن حجر العسقلاني: **لسان الميزان.**

- ابن العماد الأصبهاني: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب.**

- ابن كثير: **البداية والنهاية.**

- ابن منظور: **لسان العرب.**

- أبو نعيم: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.**

- أبو طالب المكي: **قوت القلوب.**

- بدوي (دكتور عبد الرحمن): **شطحات الصوفية.**

- بروكلمان (كارل): **تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية (دار المعارف).**

- الحكيم الترمذي: **كتاب الفروق (مخطوط).**

- السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى.**

- السلمي (أبو عبد الرحمن): **طبقات الصوفية ومعانيها.**

- الشرقاوي (دكتور حسن): **الحكومة الباطنية.**

- : **ألفاظ الصوفية ومعانيها.**

- الصفدي: **الوافي بالوفيات.**

- الطوسي (السراج): **اللمع في التصوف.**

- عبد الحليم محمود (دكتور): **ذو النون المصري.**

- : بشر بن الحارث.

- الغزالي: **إحياء علوم الدين.**

- فؤاد سزكين: **تاريخ التراث العربي.**

- القاشاني: **اصطلاحات الصوفية.**

- القشيري: **الرسالة القشيرية.**

- الكلاباذي: **التعرف لمذهب أهل التصوف.**

- المناوي: **الكواكب الدرية في مناقب السادة الصوفية (مخطوط).**

فهارس التحقيق

١ ــ فهرس الآيات القرانية

٢ ــ فهرس الأحاديث الشريفة

٣ ــ فهرس المصطلحات الصوفية

٤ ــ فهرس المواضع والبلدان

٥ ــ فهرس الأعلام

٦ ــ فهرس التراجم

٧ ــ فهرس الموضوعات

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث الشريفة

(أ)

(ث)

(ج)

(ر)

(س)

(ص)

(ك)

(ل)

(م)

(ي)

٣ ـ فهرس المصطلحات الصوفية

٤ ـ فهرس المواضع والبلدان

٥ ـ فهرس الأعلام(*)

(أ)

(*) راعينا ترتيب أسماء الأعلام ترتيباً هجائياً على حسب الاسم الذي اشتهر به كل واحد من هؤلاء الأعلام.

٦ ـ فهرس التراجم

فهرس الترجمات الموجودة في هوامش التحقيق

٧ ـ فهرس الموضوعات

المقدمة في التصوف